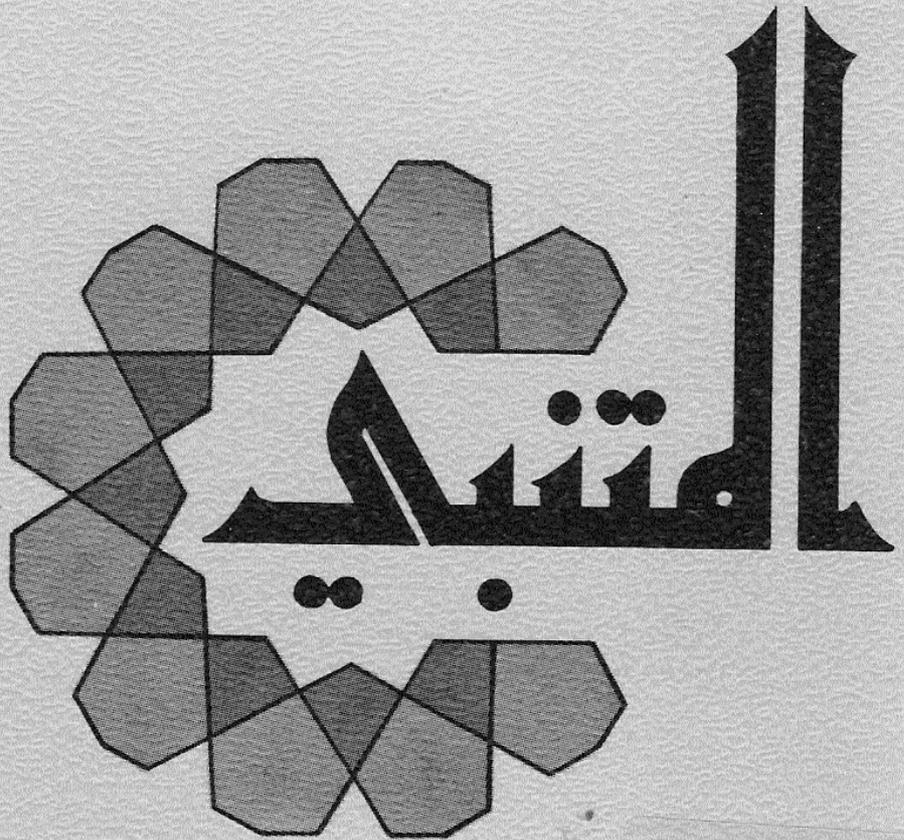
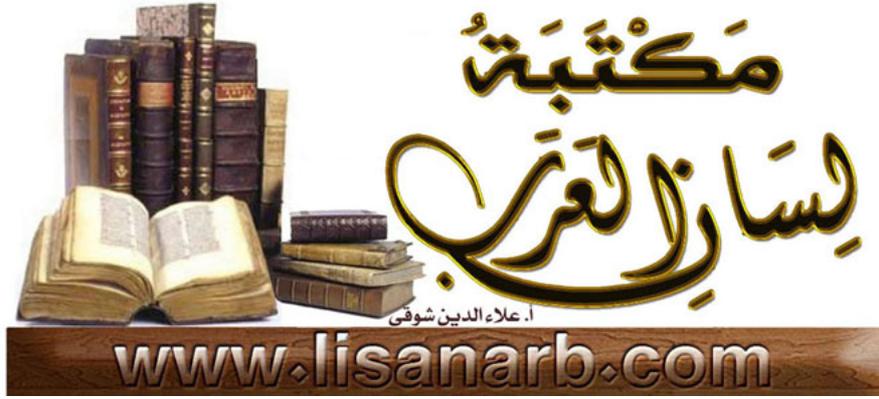


الطبيعة عند المتنبّي



د. عبد الله الطيّب



منشورات وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي

بغداد - تشرين الثاني ١٩٧٧.

مكتبة لسان العرب

وأحب إلى أن يقال أبو الطيب • وما أريد بقولهم المتنبى أول الامر
الا النبؤ والعيب ، فصيّر الاستعمال ، وما كان لشعره من سيورة
وشهرة ، له كالحلية ، وذكر ابن خلكان ان بعض المغاربة كانوا يقولون
(المتنبه) كأنهم يشيرون بذلك الى ما صار للقبه من دلالة على الفطنة
وكشف ستار طبائع النفوس ، مكان دلالة الأولى على دعوى النبوة •
هذا ، وقولنا الطبيعة نعنى به ظاهر معنى هذا اللفظ ، لانتعمق
وراء ذلك بشيء والله دره أبى الطيب إذ يقول :

أبلغ ما يبلغ المراد به الطبع
وعند التعشق الزلل

فمن ظاهر معناه صفات الأمكنة والأزمنة من أجواء وفصول
وشمس وأصيل وقمر وليل ونجوم والحيوان بريه وبحريه
وجويه ، وزعم الدكتور زكي مبارك رحمه الله في بعض ما كان يناقش
به الدكتور أحمد امين رحمه الله أيام الرسالة في سنوات الأربعين أن
الغزل من باب الطبيعة لأن جمال النساء من مفاتن الطبيعة ذروة
- ولا يخلو مقاله هذا من صواب باية ما كان كثيراً ما يقع وصف
الرياض والغيوث في معرض ذكر الطلول ووقفات بكاء العشاق
وصفات الظعائن الحسان كآيات لبيد :

فَعَلَا فَرُوعَ الْأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتَ

بِالْجَلْهَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامِهَا

وايات علقمة :

تَسْقَى مَذَانِبًا قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا

حَدُّورُهَا مِنْ أَتَى الْمَاءِ مَطْمُومٍ

وايات عنتره :

أَوْ رَوْضَةً انْفَاءً تَضْمَنُ نَبْتَهَا

غَيْثٌ قَلِيلٌ الدِّمْنِ لَيْسَ بِسَعْلَمِ

وكان ذو الرمة من الاسلاميين ربما مزج بين اوصاف النساء

والطبيعة مزجاً فصار بذلك الى نوع من التصوف . وفي شعره تأمل

وعمل كثير ويعجبني قوله :

ذَكَرْتُكَ أَنْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنِ

أَمَامَ الْمُطَايَا تَشْرَيْبِهِ وَتَسْنَحُ

من المؤلفات الرمل أدماء حرة

شعاع الضحى في متنها يتوضح

وهنا صورة الظبية ورمالها وتألق الشعاع على متنها

أوضح من صورة المليحة ، وصار ذو الرمة بهذه الصورة الى

تجويد ومزج بين الطبيعة والمرأة أقوى في قوله :

بَرَّاقَةٌ الْجِيدِ وَاللَّبَاتِ وَاضِحَةٌ

كَأَنَّهَا ظَبِيَّةٌ أَفْضَى بِهَا لَبَّ

بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عِقْدٍ

عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَسْبَاطُ وَالْهَدَبُ

صُورَةٌ بِرُوزِ الظَّبْيَةِ مِنْ كُثْبَانِ الرَّمْلِ وَاضْوَاءِ الْأَصِيلِ
وَضُرُوبِ نَبَاتِ الطَّرْفَاءِ وَالشَّجِيرَاتِ ذَاتِ الْوَرَقِ السَّبْطِ هَهُنَا
بَيِّنَةٌ الْأَبْعَادِ وَالْمَعَالِمِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تُخَالِطُهَا مَعَانِي الْغَزَلِ فِي هَذِهِ
الآيَاتِ : اللَّبَاتُ الْوَاضِحَةُ وَالْجِيدُ الْبَرَّاقُ مِنَ الْمَرْأَةِ •

وَأَتَمَّ ذُو الرِّمَّةِ إِحْكَامَ الْمَزْجِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ الْبَشَرِيِّ

فِي قَوْلِهِ :

كَأَنَّ عَمُودَ الْفَجْرِ جِيدٌ وَلَبَّةٌ

بَعِيدٌ الدَّجَى مِنْ حُرَّةِ الْوَجْهِ سَافِرٌ

هُنَا صُورَةٌ لِمَرْأَةٍ جَمِيلَةٍ بَرُّوزَةً سَافِرَةً الْوَجْهِ عَلَى رَأْسِهَا
الْخِمَارَ وَجِيدُهَا وَلَبَاتُهَا مُشْرِقَةٌ وَمِنْ حَوْلِهَا سَوَادٌ • وَصُورَةٌ
أَوَّلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ بِنُورِهِ النَّاعِمِ الْمُخَالِطِ الظَّلَامِ وَشَفَقِهِ الْمَمْزُوجِ
الْبَيَاضِ بِالْأَرْجَوَانِ وَيُطِيفُ بِهِ بِرُوزِ الْأَفَاقِ بِنَبَاتِهَا وَسَهُولِهَا
وَرُبَاهَا ••

شَدَّ مَا تُشْبِهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لَوْحَةَ لِينَارْدُو دَاقْنَشِي الَّتِي سَبَّاهَا

(الضَّاحِكَةُ) أَوْ (الْبَاسَةُ) (لَاجِيو كِنْدَا) •

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْمُرءُ هَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَوَارِدِ الْخَوَاطِرِ كَمَا يَقَعُ

الْحَافِرُ عَلَى الْحَافِرِ ، أَمْ وَقَعَ إِلَى لِينَارْدُو دَاقْنَشِي بَعْضُ مَا تُرْجِمُ إِلَى

اللَّاتِينِيَّةِ أَوْ عَنْهَا مِنْ شِعْرِ غَيْلَانَ • ؟

وَيُخَيَّلُ إِلَى الْكَثِيرِينَ ، وَهَذَا مِنْ بَعْضِ مَا دَفَعَ الدُّكْتُورُ زَكِي

مبارك رحمه الله الى الغضب وحيازة باب الغزل كله الى الطبيعة ، أن
موضوع أشعار الطبيعة فن اختص به الافرنج ، وقصر فيه
العرب ؛ فهب شوقي رحمه الله في :

آذار أقبل قم بنا يا صاح

وغيره يستدركون ذلك •

والتأمل ربما صحَّ عنده ان اوصاف البساتين ، وهي التي حكَّتْ
محلَّ اوصاف الأبل والقفار في المطالع والنسيب كما لاحظ ابن رشيق ،
قد كان لها اثر كبير في أشعار الاوربيين ، ممَّن عرفوا العريية
فقرأوها في أشعار الاندلس مثل كلمة ابن الخطيب :

جاءك الغيث إذا الغيث هـي

يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكن وصلك الا حلماً

في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى

تنقل الخطو على ما يرسم

زماً بين فرادى وثنى

مثلاً يجئ الوفود السوسم

والحيا قد جلل الروض سناً

فتغور الدهر منه تبسّم

وأشعار ابن زيدون وابن خفاجة ، بكنه المشاركة من أمثال الصنوبري

وأبي عبادة وابن الرومي وأبي تمام •

وأَلْفِتُ النَّظْرَ ، على سبيل المثال ليس إلا ، الى قصيدةِ الشاعر
الانجليزي أندرو مارثيل (١٦٢١ – ١٦٧٨) التي أسماها (خَواطِر في
حديقة) (Thoughts in a garden) فان اول ما استهلها بذكر النَّخْلَة وليس
في بلاده نخل ، والظِّل الذي وصفه اول الامر ظل نخلة - ثم قال إن خلاط
الناس ليس بشيء اذا قيس الى الوحدة والعزلة والخلوص من دنيا المجتمع
الى فكرة خضراء في ظل أخضر .

Society is all but rude
To this delicious solitude
Annihilating all that's made
TO a green thought in a green shade

وشبه هذا بقول أبي العلاء لا يخفى :

ذَرَانِي وَكُتْبِي وَالرِّيَاضَ وَوَحْشِي

أَكُونُ كَوَحْشِيٍّ يَأْخُذِي الْأَمَلِسَ

يُسَوِّفُ أَزْهَارَ الرَّبِيعِ تَعَلُّةً

وَيَأْمَنُ فِي الْبَيْدَاءِ شَرَّ الْمَجَالِسِ

وقوله الظل الأخضر فيه نفس ابي تمام حيث قال :

يا صاحبي تقصيا نظريكما

تريا وجوه الارض كيف تصور

تريا نهارا مشمساً قد شابه

زهر الربا فكأنسا هو مقرر

فكأنما هو ظل أخضر .

وأوضح من هذا شبه قوله :

What wondrous life is this I lead
Ripe apples drop about my head;
The Luscious clusters of vine
Upon my mouth do crush their wine;
The nectarine and curious peach
Into my hands themselves do reach;
Stumblings on melons as I pass
Ensnared with flowers, I fall on grass.

بوَصَفِ ابن الرنومي للرازقي وأوصافِ ابى الطيّبِ لشار
شِعْبِ بوان :

لها ثمرٌ تشيّرُ اليك منه

بأشربةٍ وقفن بلا أواني

وكم يودد المرء لو تفرغ بَعْضُ طلاب العربية لدرس اللاتينية ليطلعوا
على ما تُرجم من أشعار العربية وميراث آدابها ذى الكنوز وأخذه من
بعده الأفرنج أخذاً من دون اعتراف أما جهلاً أو عامدين • ويُنسب
أكثر افتتاح الأفرنج بالطبيعة في القرنين الماضيين إلى الحركة الرومانتيكية
والى تأثير جان جاك روسو ، وما خرج هؤلاء عن مذهب من سبقوهم إلا
بالذي روجه روسو من مذهب قوة العاطفة والانفعال ازاء الطبيعة انفعالا
لا يخلو من روح تصونف لعله اسلامي المعدن والسنخ في اصله ، وفي
تأملات روسو وهو يمشى منفردا وبعض ما جاء في اعترافاته ما
يشعر بذلك •

هذا ولقت نظري من أشعار الانجليز الرومانتيكيين ومن اليهم بوجه

خاص قصيدة كيتس عن البلبل (١٧٩٥ - ١٨٢١) فقد استهلها بذكر الهمم
والخمر على النحو الذي كان يصنع شعراء العرب في مطالع النسيب القديم
وقصيدة وليم بلاك (١٧٥٧ - ١٨٢٧ م) يذكر النمر .

Tiger, tiger, burning bright
In the forests of the night

يا نَمْرُ يا نسر ..

ذا اللهب الوهاف ...

في غابات الظلام

ثم وصف خطأ النمر وذراعَيْه وجبروته (وحين آخَذَ قلبك في

الوَجيب ، يا للسَّاعد .. ويا للقدم ... الرَّهيب) .

لا شك ان وليم بليك Willam Blake على ما ينسب اليه من الاصاله

والرومانسية الفذة قد اطلع على ترجمة من كلمة ابي الطيب النادرة :

وَرَدَ اذا ورد البحيرة شارباً

وَرَدَ الفراتَ زئيره والنَّيلا

ما قوبلت عيناه الا ظننا

تَحْتِ الدجى نارَ الفریق حلولا

يَطَأُ الثَّرسيَ مترفقاً من تيهه

فكأَنَّه أسٍ يَجْسُرُ عليلاً

ويرد عقرته الى يافوخه

حتى تصير لرأسه إكليلاً

وتظنه ممّا يُزَمجر نفسه

عنها لشدة غيظه مشغولاً

قَصْرَت مَخَافَتُهُ الْخُطَا فَكَأَنَّا
 رَكِبَ الْكَمِيْدَ جَوَادِهِ مَشْكُولَا
 الْقَى فَرِيْسَتَهُ وَبَرَبْرَ دُونَهَا
 وَقَرِبْتَ قُرْبَاً خَالَهُ تَطْفِيْلَا
 مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ
 حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّوْلَا
 أَسَدٌ يَرَى عَضْوِيَهُ فِيكَ كَلِيْمَا
 مَتْنًا اَزَلَّ وَسَاعِدَا مَفْتُولَا
 وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحَجَارَ كَأَنَّهُ
 يَبْغَى إِلَى مَا فِي الْحَضِيْضِ سِيْلَا
 أَنْفُ الْكَرِيْمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكٌ
 فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيْرَ قَلِيْلَا
 وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
 مِنْ حَتْفِهِ مِنْ خَافٍ مَا قِيْلَا

والذي يدعو الى هذا الظن ما في قصيدة وليم بلاك من تتبّع معاني
 أبى الطيب في صفة عيني الاسد ، وهيئة تبهنسه بمشيته وتجمعه
 وزمجرته ليثب وشجاعة قلبه وقلة اكترائه بالعدد الكثير وتوهشم ابى
 الطيب ان عنده معايير من قضايا النبيل الذي يكأبى الدنية من مضض
 العار ♦♦♦♦

What immortal hand or eye
 Could frame thy fearful symmetry

هذا كأنه اختصار قول أبي الطيب :

حتى حَسِبْتَ العَرَضَ منه الطولا

In what distant deeps or skies

Burnt the fire of your eyes

..... burning bright
In the forests of the night...

وهو تكرار لقوله الأول

وقوله الذي ترجمته (غابات الدجى) أو (غابات الظلام) إنما هو من

• قول أبي الطيب (تحت الدجى) •

وحام وليم بلاك حول معانى الحكمة التي عند أبي الطيب بنوع من

• جَهْدٍ وتكلف غوص •

What the hammer? What the chain?

In What furnace was thy brain

وتكرار معنى النار لا يخفى ، والخطابة التي في الاستفهام قبل جوفاء

ذات قعقة ليست في مستوى ما تقدمها •••••

ثم أي مخ للأسد ؟ ••••• إنما هو قلبه الباسل ولو كان معه مخ

لكان ما قال أبو الطيب في غير هذه القصيدة :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

هذا ومثله هذا التوافق والتوارد على الخواطر يعسر أن يظن

فيه أنه لم ينظر فيه الآخر وهو وليم بلاك إلى الأول وهو أبو الطيب ،

وقد نعلم أن علوم العرب وآدابهم كانت تترجم ويُلهم بها أولو

الثقافة في اوربا - ومن حسب أنه انما كان يُتَرَجَمُ الطُّبُّ والفلسفة
والرياضيات والفلك وما إلى ذلك ولا يُؤَبَّهُ إلى الأَدبِ فهذا وهم •

وقد ذكر الكاتب الفرنسي ستندال (Stendhal) - (١٧٨٣-١٨٤٢)
في احدى هوامش كتابه عن الحب في معرض الحديث عن عشاق العرب وجميل
بشينة أن رجال الفكر الاوربيين لما وجدوا آداب العربية ، مع الذي كان من
معرفة العرب بعلم يونان ، لا تحاكي اساليب اللاتينية وآداب اليونان القديمة،
احتقروها واعرضوا عنها مع كثرة المخطوطات منها في باريس • ولعسري ان
في هذا الذي قاله لدليلا على اطلاعهم عليها • ولم يكن هو أول من فعل ذلك ،
وفي ترجمته ما يفيد ان أول معرفته عن عشاق العرب كان عن طريق أحد
مدرسيه •

واذ ثبت اطلاع مفكري الافرنج على آداب العربية فما شابه اساليب
روائعها من روائعهم فعنها أخذوه ، ولا نكتفت لما اظهروه من إعراض
واحتقار فما كان ذلك الا دعوى وججوداً • واحتججان صليبيّة على
الأرجح ، والله تعالى أعلم •

هذا واذ نحن بمعرض الحديث عن الأسد ، فقصيدة البحري التي
يوازن بينها وبين قصيدة أبي الطيب ، مع وصفها غيل الأسد والمنظر المحيط
به كانت أشد حرصا على اظهار بسالة الممدوح ومهارته بالسلاح وفتون
القتال :

هزبراً مشى يَبْغِي هزبراً وأغلبا

من القوم يعشى باسل الوجه اغلبا

حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَاعْزَمَكَ اثْنَى
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدَّهُ نَبَا
لَكِنَّ أَبَا الطَّيِّبِ مَعَ ذِكْرِهِ بَدْرَ بْنَ عِمَارٍ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَقَوْلِهِ
فِيهِ :

أَمْغَفَّرَ الْأَسَدِ الْهَزْبَرِ بِسَوِّطِهِ
لَمَنْ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
(وَلَا شَكَّ أَنْ بَدْرًا أَطْرَبَهُ هَذَا الْمَدْحُ) إِنَّمَا كَانَ إِعْجَابُهُ بِالْأَسَدِ ، هَذَا
الْحَيَوَانَ الْفَذَّ الشَّجَاعَةَ الْبَاهِرِ الشَّرَاسَةَ ، الْبَاسِلَ مَنْظَرَ الْوَجْهِ •
وَمَعَ أَنْ ظَاهَرَ قَوْلُهُ :

أَسَدٌ يَرَى عَضْوَيْهِ فِيكَ كَلِيهِمَا
مَتْنًا أَزَلَّ وَسَاعِدًا مَفْتُولَا
كَأَنَّهُ فِي صِفَةِ جِسْمِ بَدْرِ بْنِ عِمَارِ الرَّيَاضِيِّ ذِي الْعَضَلَاتِ ، لَكِنْ بَاطِنُهُ
فِي صِفَةِ الْأَسَدِ إِذِ الْمَتْنُ الْأَزَلُّ وَالسَّاعِدُ الْمَفْتُولُ هُمَا عَضْوَا الْأَسَدِ وَالَّذِي عِنْدَ
بَدْرِ بْنِ عِمَارٍ شَيْءٌ " يُشَبَّهُهُ بِهِمَا ، فَتَأْمَلُ •
وَأَحْسَبُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ لَمْ يَخْلُ مِنْ اسْتِشْعَارِ نَوْعِ سَمَاجَةٍ فِي
مَمْدُوْحِهِ الْإِنطَاكِيِّ إِذْ قَالَ :

لَمْ تَفْتَقِدْ بِكَ مِنْ غَيْثِ سَوَى لَشَقِّ
وَلَا مِنَ الْبَحْرِ غَيْرِ الرِّيحِ وَالسَّفَنِ
وَلَا مِنَ اللَّيْثِ إِلَّا قَبْحَ مَنْظَرِهِ
وَمِنْ سِوَاهُ سَوَى مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

وهل قبح الليث الا أن منظره مخيف ؟

القى فريسته وبربر دونها

وقربت قريبا خاله تظيلا

أسد يرى عضويه فيك كليهما

متنا أزل وسامعا مفتولا

ووصف أبي الطيب للفارس والفرس بعُد لا يخلو من إشعار

بضعفهما ازاء هذا « الخبعتينة الشجيع » - ولعله ما غلبه الا كثرة

العدد عليه من كل جانب - تأمل قوله :

قمرت مخافته الخطى فكأثما

ركب الكسي جواده مشكولا

أليس فيه إشعار " بخوف الفارس كما قد خافت فرسه الظامئة

الفصوص التي :

يأبى تفردتها لها التمثيلا

هذا وذكر « اللثق » الذي مر أنفا ما أرى أبا الطيب قصد بذكره

تفضيل صاحبه على الغيث كما قد قصد الى إثبات تجربة أحسنها من

خبث اللثق - وهو الطين اللزج الذي تصيره الأرض الزراعية غير

ذات الرمل بعُد المطر - وساجدة الوحل فيه • وقد يجود الغيث

ولا يكون معه لثق •

وشبيه بذكره اللثق ، ذكره الريح والسفن إذ معنى ذلك الدوار

ولعله عاناه في بعض أسفاره والله أعلم • هذا وأبو الطيب عسيق الاعجاب

بجنس الأسد وقوله :

كل غاد لحاجة يتمنى يتفارسنَ جهرة واغتيالاً
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتسه سؤالاً
كل غاد لحاجة يتمنى ان يكون الغضنفر الربالاً

فيه تأويلٌ جانبٍ كثيرٍ من هذا الاعجاب ، إذ الناس سباعٌ والأسد
أصراحٌ وأنبلٌ سبعيةٌ منهم ومن قدر على أن يكونه في القوة
والإقدام والهيبة كأنه لا يتردد ، وعند نفسه كان أبو الطيب أسداً
- كما قال :

فأرم بي ما أردت مني فإني
أسدٌ القلب آدمي الرواء

وقريب منه قوله من قبل :

وجاهلٍ مدءه في جهله ضحكى
حتى أتته يدٌ فراسة وفهم
إذا رأيت ثيوباً الليث بارزةً
فلا تظننَّ ان الليث يتسم
فدل بهذا على المكتمن في نفسه من ان صاحب القلب الاسدي أسدٌ له
انياب وأظفار فلا عجب أن استشعر نحوه ومدوحوه كل حذر ،

وهو القائل يطلب حلف أسد الفراديس :-

أجارك يا أسد الفراديس مكرماً
فتسكن نفسي أم مهان فمسلماً
ورائي وقدأمي عداة كثيرة
أحذر من لص ومنك ومنهم

فهل لك في حِلْفِي على ما أُريده

فأني بأَسباب المعيشة أعلم

ولم يخل في هذا من نظرٍ الى كلمة القَتَال الكلابي حيث زعم أنه
صَحِب النمر في الغار:

ولي صاحبٌ في الغارِ هدك صاحباً

هو الجَوْنُ الا انه لا يُعَلَّلُ

اذا ما التقينا كان جُلَّ حديثنا

صُمَاتٌ وطرُفٌ كالمعايلِ أطحلُ

فأغلبه في صنعة الزاد إنني

أميظُ الأذى عنه وما إن يَهكَلُ

وكانَ آياتِ القَتَالِ هذه من فكاهاةِ العربِ ونوادِرهم
وأكاذيبهم كالذي زعموا من تزوجَ السَّعْلاةَ وقِتالِ الشَّقِّ
والغولِ •

ويقول أبو الطيب :

ومن يجعل الضَّرغامَ بازاً لصيِّده

تصيِّدهُ الضَّرغامَ فيما تصيِّدا

فما كان يَغيبُ عنه استحالة حِلْفِ أسدِ الفِرايسِ • ولكنَّه
كما قال :

تَمَنِّ يَلدُ المسْتَهامَ بذكِرِهِ

وان كان لا يُجْدِي فتيلاً ولا يُجْدِي

وَعَظِظَ عَلَى الْإِيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى

ولكنه غيظ الأسير على القدر

وقد نعلم قصة ناسك كليله ودمنة إذ أصاب فأرة صغيرة
فدعا الله أن تصير آدمية حتى يقدر على تربيتها فلما شبت واران
تزوجها لم يجد لها مما يعجبها كفتاً إلا الفأر فدعا الله أن تكون فأرة •
وقد نعلم إعجاب الروماتكيين ووليم بلاك منهم - بيد أوة الأعراب
وتوحشهم •

فلعل هذا الإعجاب دفعه وهو لا يشعر إلى أن يحول ما أصاب
من صفة الأسد في الذي بلغه من شعر المتنبى أو ما ترتب بعد
تأثيره أو حذى فيه على أسلوبه ، فيجعله في النسر :

Tigre, tiger, burning bright

In the forests of the night.

وما عرف أو أبه أن نمرة مخطط ، وهو ضرب من وحوش
بلاد الهند ، وأن نسر العرب ذو نقط ، ومنه قولهم نمرية يعنون
الثوب ذا النقط والالوان وإياه عنى ابن مالك حيث قال :-

ولا يجوز الابتداء بالشكره ما لم تقد كعند زيد نمرة

ولعله لو فطن إلى ذلك لكان سى كلته هذه بالأسد مكان النمر ،
أم تراه عنداً أثر تسميتها النمر بقصد التعسية وليخفى مكان أخذه حيث
أخذ من أبي الطيب ؟ هذا ومن عجيب أمر لامية الأسد هذه قوله :

سمع ابن عمته به وبحاله

فنجاً يهرول أمس منك مهولاً

ولست الهرولة بأسرع الجَرِي ، كالذي يقع عند الفرار من مطارِدٍ •
ويذكر أصحاب الصَّيْدِ ومعرفة الوحوش أن الأسد اذا قَتَلَ بسوْضِ
سارعت الأسود الى الاقتال منه تَسْتَوْبِيئُهُ •

وأمرنا ما فرَّ منه فراره وكَقَتَلَهُ أَلَاءَ يَمُوتُ قَتِيلًا
وكأنَّ هذا يقوله على لسانِ الأسد الذي أستوبأ المكان فاتقل عنه :

تَلِفَ الَّذِي اتَّخَذَ الْجِرَاءَةَ خَطَّةً

وَعَظَ الَّذِي اتَّخَذَ الْفِرَارَ خَلِيلًا

وهذا كالرثاء للأُسود عامة ، أنها مع شجاعتها وقوَّة اجسادها لاتقوى
على مكر الانسان واحتياله واغتياله • وهل قَتَلَتْ أَسَدًا اللَّامِيَةَ الْإِ
وَتَبِيئَهُ ، حيث تَلَقَّتَهُ الرماح ، فنزف ثمَّ :

خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلًا

قَبِضَتْ مَنِيئَهُ يَدَيْهِ وَعُنُقَهُ فَكَأَنَّمَا صَادَفْتَهُ مَغْلُولًا

هذا وقال ابن الاثير عن هذه اللامية ولا ميتة التي رثى بها أم سيف الدولة :

نَعِيدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِيَّ وَتَقَتَّلْنَا الْمُنُونُ بِلا قتال

إنهما « كَفَى بِهِمَا شَاهِدًا عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ انْتِفَادِهِ بِالْإِبْدَاعِ » والذي

يُشِيرُ إِلَيْهِ هَهُنَا مَا ذَكَرَهُ قَوْلُهُ عِنْدَ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطَّائِفِينَ « وَلَمَّا تَأَمَّلْتَ

شِعْرَهُ وَجَدْتَهُ أَقْسَامًا خَمْسَةً ، خَمْسٌ فِي الْغَايَةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا دُونَ

غَيْرِهِ » وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي وَصَفَ بَعْضُ امْتَلَتْهَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ فَقَالَ :

« وَهَذَا الْمَوْضِعُ لَمْ يَأْتِ فِيهِ أَحَدٌ بِمَا يَثْبُتُ عَلَى الْمُحَكِّ إِلَّا أَبُو الطَّيِّبِ

وَاحِدَهُ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنْ مُتَلَقِّي الشُّعْرَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فَانْهَمَ قَدْ قَصَرُوا

عَنْهُ هَذَا مَعَ زَعْمِهِ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ أَبِي تَمَّامٍ

فقصرت عنه خطاه ولم يعطيه الشعْرُ من قياده ما أعطاه » • وهذا أسوقه
لمجرد التنبيه لا لأزعم به أن ابن الأثير وقع به في تناقض • إذ لا ريب
أنه كان يرى أن روائع المتنبي أجود من روائع سواه ولذلك زعم أنه خاتم
الشعراء واستشهد بقوله :

لا تمدحنَّ كريماً بعد رؤيته
إن الكرامَ بأسخاهم يداً ختموا

ولا تبال بشِعْرٍ بعد شاعره
قد أفسدَ القولُ حتى أحمِدَ الصم

وليت أبا الطيب رحمه الله عاش إلى زماننا هذا ليشهد كيف أفسدَ
القولُ وأحمِدَ الصم وجاءتنا ثموراً أضرابِ « بلاك » التي كانت
عنده أسداً •••••

أسداً فرائسها الأسود يقودها
أسدٌ تكون له الأسودُ ثعالبا

فصيرناها نحنُ بافتنانِ المحاكاةِ الكاذبةِ سنانيِرَ •

هذا ، وما برز أبو الطيب هذا التبريز الذي أشار إليه ابن الأثير
وجزَم به الذهبي ، إذ قال « ليس في العالم احدٌ أشعرُ منه أما مثله فقليل » ،
بأنه أدق الشعراءِ غوصاً على المعاني أو أكثرهم تشبيهاً واستعارةً ، أو
أخبرهم بتوليدِ المعاني أو أشددهم افتنان في الأوصاف ، أو أرقهم
غزلاً ، أو أقواهم أسراً جزالةِ الفاظٍ ، أو أجهرهم رنةً جرّسٍ
غناءً ، وأبرعهم وشى صناعةٍ بديعٍ ••• كلُّ أولئك له منهنَّ نصيبٌ
جيد وافر ، غير أن من الشعراء من يتقدمه فيهنَّ جسيماً أو في بعضهن دون

بعض كالذي ذكر ابن الاثير من أمر أبي تمام حيث قال « هو ربُّ معانٍ وصَيْقَلُ البابِ وأذهانٍ » وجعل أبا الطيب دونه في هذا المسلك وكالذي ذكره ابن رشيق من تقديم ابن الرومي في باب الغوص على المعاني وتوليدها ، وكأنَّ الإجماع قائم بين النقاد على أنَّ ديباجة البحري في المكان الذي لا يُدْرِكُ ولذلك قال ابن الاثير إنه اجاد سَبَكَ اللفظ على المعنى وأراد ان يَشْعُرَ فغنى • وإذَنْ فبماذا برز أبو الطيب ؟ • وأحسبُ أنَّ ابن الاثير قد وَهَمَ في باب موازنته بين البحري وأبي الطيب في نعت الاسد اذ فضّل هذا ثم قال في توضيح أسباب هذا التفضيل : « والبحريء وان كان أفضل من المتنبى في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبى أفضل منه في الغوص على المعاني » ومحلّ وهمه أن هذه الصفة هي عينها التي قدّم بها أبا تمام عليه ثم عدل عن تقديمه فيها حيث يكون أبو الطيب انفرد بالابداع وذلك في الخمس الذي نصّ عليه ولا يمكن ان يَكُون انفردّه بالابداع بسبب الغوص على المعاني وهو ما خبّرنا أنّه قد قصرت فيه خطاه عن خطأ أبي تمام •

وأقربُ الى الصواب ما ذكره ابن رشيق من أنَّ أبا الطيب كان يهجم على معانيه كالفارس • والحقُّ أن سبب تبريز أبي الطيب هو قوّة شخصيّته ، وحرارة عاطفته وصِدْقَه في البيان عن نفسه • وقد نبّه ابن جني على هذا المعنى في الخصائص اذ قال عنه : « وما عرفته الا صادقا » • وقد فطن أبو العلاء الى أمر شخصية أبي الطيب حين اعتذر له في رسالة الغفران عما أخذه عليه ابن الفارج من التصغير فقال بعد ان استشهد بأمثلة منها :

أَذْمَ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلَهُ
وَنَامَ الْخَوِيدِمُ عَنْ لَيْلِنَا
مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْيَلِ عَصْرِ... الخ

« ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطَّبْع ، فما حَسُنَ بِهَا

مألوف الربع » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله كثير الاسفار • تَنَقَّلَ بَيْنَ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ أَيَّامَ صِبَاهٍ وَشِبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى سَيْفَ الدَّوْلَةِ • وَقَالَ فِي الْقَصِيدَةِ
الَّتِي مَدَحَ بِهَا أَبَا الْقَاسِمِ الْعُلُوِي :

إِلَى لَعِيرِي قَصْدٌ كُلِّ عَجِيْبَةٍ
كَأَنِّي عَجِيْبٌ فِي عِيُونِ الْعَجَائِبِ
بِأَيِّ بِلَادٍ لَمْ أَجُرَّ ذَوَائِبِي
وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَأَهُ رِكَائِبِي

وقال في مرثيته لأمه :

لَيْسَ لَدَيْكَ يَوْمُ الشَّامَتَيْنِ بِسَوْتِهَا
فَقَدْ وُلِدْتُ مِنْهُنَّ لِأَنْفُسِهِمْ رَغْمًا
تَعَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَأَلًا إِلَّا فِتْوَاهُ عِجَابَةً
وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمًا
يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
وَمَا تَبْتَغِي مَا أَبْتَغِي جَلًّا أَنْ يُسْمَى

وقال يَذْكَرُ فَقَرَّهُ وَسَيَّرَهُ عَلَى قَدَمِيهِ :

وَمَهْمِهِ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي

تَقْصُرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُّ

بِصَارِمِي مُرْتَدٍ مَخْبَرْتِي

مُجْتَرِيءٌ بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلٌ

إِذَا صَدِيقٌ نَكِرْتُ جَانِبَهُ

لَمْ تُعِينِي فِي فِرَاقِهِ الْحِيَلُ

فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبٌ

وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُمَّتِهَا بَدَلٌ

وَتَنْقَلُ أَيَّامُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ يَصْحَبُهُ فِي حُرُوبِهِ وَفِي سِوَى ذَلِكَ مِنْ

ضُرُوبِ ارْتِحَالِهِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يَغْزُو سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِلَادَ الرُّومِ ، وَرَبَّمَا خَرَجَ

عَلَيْهِ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فَحَارَبَهُمْ فِي الْبَادِيَةِ - مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى

تَخَوْفَ أَنْ تَفْتَشَّهُ السَّحَابُ

فَبِتَّ لِيَالِيَا لَا نَوْمَ فِيهَا

تَخَبُّ بِكَ الْمُسَوِّمَةُ الْعِرَابُ

يَهْزُدُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ

كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ

وَتَسْأَلُ عَنْهُمْ الْفُلُوتِ حَتَّى

أَجَابَكَ بَعْضُهَا وَهُمْ الْجَوَابُ

وفي سفر الغزوات الى أرض الروم يقول مثلاً :

واشقى بلادِ اللهِ ما الرومُ أهلُها
بهذا وما فيها لمجدك جاحد
سنتت بها الغاراتِ حتى تركتها
وجفنّ الذي خلفَ الفرنجةِ ساهد

ومثلاً :

وَصَوُّوا إِلَى الْمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ
فلو كان قرْنُ الشَّمْسِ ماءً لأوردا
سَرَيْتَ إِلَى جِيحَانَ مِنْ أَرْضِ آمَدٍ
ثلاثاً لقد أدناك ركضٌ وأبعدا
وبعد طول ملازمته لسيف الدولة سافر الى مصر ، وكان بعض سفره
فراراً حثيئاً وإلى ذلك أشار في قوله من قصيدةٍ مدحٍ بها كافوراً :
وجدت أنفع مالٍ كنت أذخره
ما في السوابقِ من جرّىٍ وتقريب
فتنّ المغاوزَ حتى قال قائلها
ماذا لقينا من الجرودِ السراحيب
تهوى بسجردٍ ليست مذهبُه
لبسِ ثوبٍ وما كُولٍ ومشروبِ
يرمى النجومَ بعيني من يحاولها
كأثما سلبٌ في عينِ مسلوبِ

وأحسب أنه الى هنا نظر أبو العلاء في قوله :

ولا صَحِبْتُ ذَنَابَ الْإِنْسِ طَاوِيَةً

ثَرَأَقِبُ الْجَدَى فِي الْخَضْرَاءِ مَسْبُوتَا

وقد المَعَتُّ بهذا المعنى في كتابي (مع أبي الطيب) ؛ وقد كان أبو العلاء رحمه الله كثير الأخذ من أبي الطيب والتسليق على دَرَجِ مَرَاقِيهِ •

وقِصَّةُ فرارِهِ من كَافورٍ معروفة ، وقد ذكرها وذكر الإبلَ البُجَاوِيَّةَ التي اجتاز عليها التَّيِّه في كلمته :

الأكلُ ماشيةَ الخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ ماشيةِ الهَيْدَبِي
وكلُّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ خَنُوفٍ وَمَا بِي حُسْنُ المِشِي
ولكنهنَّ حِبَالُ الحَيَاةِ وَكَيْدُ العُدَاةِ وَمَيْطُ الأذَى

حتى صار الى العراق •

وقد زارَ أرضَ فارسِ ثم عاد من عضد الدولة وهو يقول :

أرىَ أَسْفَى وما سِرْنَا بَعِيداً

فكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ ابْتِرَاكَا

فزلُّ يا بُعْدُ عن أَيْدِي رِكَابِ

لها وَقَعُ الأَسِنَّةِ فِي حِشَاكَا

وأيّاً شِئْتَ يا طَرِقي فكوني

أذَاةً أو نَجَاةً أو هَلَاكَا

رووا أن عضد الدولة قال : (تطيَّرت عليه من ترَّكه النجاةَ بَيْنَ

الأذاة والهلاك •)

وقال الثعالبي في نحو من هذا المعنى جعل قافية البيت الهلاك فهلك ،
هذا وجب ما شاهده أبو الطيب وانطبع في نفسه من تجارب أسفاره قد
أفصح عنه بصدقه وحرارة عاطفته وقوة شخصيته • فمن ذلك ما
ضمّنه التشبيه والاستعارة وصوّرَ البيان مثل قوله :

هُوَ الْبَحْرُ غَضٌ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا
عَلَى الدَّرِّ وَاحْذَرَهُ إِذَا كَانَ مَزِيدًا

وقوله :

وَيُخْشَى عِبَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانُهُ
فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَا

وقوله :

هَلْ التَّحْدِثُ الْحَمَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا
وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِ
بِنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا
وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتْلَاطِمٌ

فكسا في البيتين الأولين صورة البحر مزبداً وصورته يغشى
الساحل ويلطم صخره ورملة ههنا صورة صخرة عاتية وسط
البحر يحيط بها صخب الأمواج وهي الصورة المستعارة لصفة
الثقلعة وصراع الجيوش حولها ههنا •

وقوله :

حواليه بحرٌ للتجافيف مائج
يسير به طود من الخيل أيهم

وههنا أيضا كاميناً وراءَ الاستعارةِ إحساسٌ "قَوِيٌّ" باتساعِ
الْبَحْرِ وعظمته وارتفاعِ الجبلِ وشموخه ، ولا رَيْبَ أَنْ هذا شعورٌ
انطبع في نَفْسِ أَبِي الطيبِ من مشاهدةِ جبالِ لُبْنانٍ وشَوَاطِيءِ سَوَاحِلِ
الشامِ • ومِمَّا يدلُّك على صِحَّةِ هذا الذي نَذَهَبُ اليه قوله مثلاً
يُشَبِّهُ نَفْسَهُ بِالْبَحْرِ وَالْجِبَالِ عَلَى نَحْوٍ من تشبيهه نَفْسَهُ بِالْأَسَدِ :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَتْنِي

الْجِبَالُ وَبَحْرٌ شَاهِدُ أَتْنِي الْبَحْرُ

ومن امثلة ما ضَمَّنَه التشبيه والصُّورَ البيانيةَ من انطباعِ نَفْسِي
إزاءَ بعضِ مظاهرِ الطبيعةِ قَوْلُهُ :

وَجَيْشٌ يَتْنِي كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ

خَرِيْقٌ رِيَّاحٌ وَاجَهَتْ غُصْنًا رَضْبًا

فههنا شعورٌ رَهْبَةٌ إزاءَ خَرِيْقِ الرِيَّاحِ وهِيَاجِهَا ، وتَأَمُّلَةٌ
دَقِيقَةٌ لَخَفَقِ وَرَيْقَاتِ الْأَغْصَانِ الْخُضْرِ الدَّقَاقِ النَوَاضِرِ
وهي تَرْقُصُ وتَتْنِي لهُبوبِ الرِّيْحِ صَغِيرَاتِ جَذَلَاتِ فِي أَطْرَافِ
الشجراتِ الكبيراتِ الثابتاتِ للعَصْفِ الشَّدِيدِ من حولهن - كهذا الطَّوْدِ
والجِيوشِ تَتَخَلَّلُهُ كُلُّ صَخْرَةٍ ومَرٌّ منه كَأَنَّمَا هِيَ غُصْنٌ رَطْبٌ
صَغِيرٌ مهتزٌ •

وبَعْدَ هذا البيتِ قوله :

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مَغَارَهُ

فمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجُبًا

وأحسبُ أَنَّ هذه العجاجةَ في الحقيقةِ ما كانت الا حَرِيْقَ الرِيَّاحِ

وافتن أبو الطيب فأشرب ذلك نَفَساً من خير يوم حليلة الذي زعموا أَن
العجاجَ فيه غَطَّى ضَوْءَ الشمس حتى بدت النجومُ وقد عكس أبو
الطيب الصورة كما ترى •

وقوله :

وكانوا يَرْمَعُونَ المَلُوكَ بأن بَدَوُا

وَأَن نَبَتَتْ في المَاءِ نَبَتَ العَلْفَقِ

والشاهد هنا صورة العلفق وهو ما غلظ من الطحلب الطافي

على الماء •

وان يكن أتساع الصحراءِ بمنزلة بحرٍ ممتدٍّ ، فالمدائنُ وزروعُ أهلِ

الريفِ في أطرافه وامراؤهم وملوكهم كل ذلك طافٍ كما يطفو العلفق •

وقوله :

تعوَّدَ الا تقضم الخيَلُ حَبَّه

إذا الهامُ لهم تَرَفَعُ جُنُوبَ العَلَائِقِ

ولا تَرِدَ العُغْدَرَانِ الا وماؤُها

من الدَّمِ كالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ

وما أَحْسِبُ أن أبا الطيب جمع بين صورةِ الرَّيْحَانِ تحت

الشَّقَائِقِ البهجةِ الجميلةِ وصورةِ العُغْدَرَانِ على أطرافِ سَطْحِ

مائها الدَّمِ ، الا لمشاهدته منظرًا جمع بينهما انطبعت صورته في

ذهنه - وحشيَّةُ الحَرَبِ ، ووداعةُ الطبيعة ، فتأمل •

وقوله :

قد سوّدت شَجَرَ الجبالِ شعورهم
فكأنّ فيه مُسِنَّةَ الغرَبانِ
وجرى على الورقِ النَّجِيعُ القاني
فكأنه النَّارَنجُ في الأَغْصانِ

وملاحظة المناظر الطبيعية - منظر الغربان مُسِنَّةً على الشجرِ
مُسَوِّدَةً بين خُضْرَةِ أَغْصَانِهِ وَغَيْرَتِهَا وَمَنْظَرُ النَّارَنجِ على
الأغصان - بَيِّنَةٌ ههنا - ولا أرى إلا أنّ أبا الطيب قد نظر إلى قول
أبي تمام :

ما رَبَعُ مِيَّةٍ معسوراً يُطِيفُ به
غَيْلانٌ أَبهى رُبّاً من رَبْعِها الخَرْبِ
ولا الخُدودُ وإن أَدْمِينِ من خَجَلِ
أشهى إلى ناظِرٍ من خَدِّها التَّربِ
سَمَاجَةٌ غَنِيتُ منا العُيُونُ بها
عن كَلِّ حُسْنٍ بدا أو مَنْظَرٍ عَجِبِ

والذي حسنها الانتصار ؛ ولقوة شعور أبي الطيب به لم يَحْتَجِ
إلى أن يُفسِّره كما صنع أبو تمام .

وقوله :

تلاكَ وَبَعْضُ الغَيْثِ يَتَّبِعُ بَعْضَهُ
من الشامِ يَتْلُو الحاذِقُ المُتَعَلِّمُ

والشاهد هنا منظر تتابع السحاب ، صِغَارُهُ يَتَلَوْنَ كِبَارَهُ وَكِبْرَاهُنِ
المُبرِّقَةُ مِنْ بَعْدِ كَأَنَّمَا تَجْتَذِرُ بَهْنٌ اجْتِدَابًا •
وقوله :

لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ السَّوَاهِلِ نَحُونَا
قَفَلْتُ إِلَيْهَا وَحَشَّةٌ مِنْ عِنْدِنَا
أَرْجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَرْتُ بِسَوْضِعِ
الْأَقَامِ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوطنَا
لَوْ تَعَقَّلْتُ الشَّجَرُ التِّي قَابَلْتَهَا
مَكَّدَتْ مَحِيَّةً إِلَيْكَ الْأَغْمَمُنَا

هذا الأَرَجُ وهذه الأشجارُ ذاتُ العُصونِ أَمْتَرَاهَا مُجَرَّدَ الفِظَافِ
أُرِيدَ بِهَا مَعْنَى المَبَالِغَةِ أَمْ أَوْعِيَةِ شُعُورِ نَابِضِ ذِي إِحْيَاءِ قَوِي بِتَجْرِبَةٍ
أَحْسَنَهَا الشَّاعِرُ وَانطَبَعَتْ فِي نَفْسِهِ كَثَلٌ انطباع ؟
وقوله :

مُنْذُ احْتَبَيْتَ بَانطَاكِيَّةَ اعْتَدَلْتُ
حَتَّى كَأَنَّ ذَوِي الأوتارِ فِي هَدَنِ
وَمَذِ مَرَرْتُ عَلَى أَطْوَادِهَا قَرَعْتُ
مِنَ الشَّجُودِ فَلَا نَبْتَ عَلَى القُنَنِ

فهنا تجربة منظرِ رُؤسِ الجبالِ المرتفعاتِ الصُّلَعِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ
الشَّاعِرُ قَدْ اجْتَازَ مَرُوجاً وَغَابَاتٍ - شَاهِدْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : فَلَا نَبْتَ
عَلَى القُنَنِ •

وقوله :

أنا صَخْرَةٌ الوادِي إِذَا مَا زُوْحِمَتْ°
وَإِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّنِي الْجُوزَاءُ

وزعم بعض الشراح ان مراده بذكر الجوزاءِ علوه المنطق وما أرى إلا انه اراد أن منطقهُ باهرٍ" ذو ألق كما تتألق أنجم الجوزاء الثلاث اللاتي هنّ لها كالنطاق ومكانهن في الليلة الظلماء واضح" ايما وضوح •

وقوله :

وَإِنْ يَكُ سَيْفٍ دَوْلَةٍ غَيْرِ قَيْسٍ
فَسِنُهُ جُلُودٌ قَيْسٍ وَالثِيَابُ

وَتَحْتَ رَبَابِهِ نَبَتُوا وَأَثَرُوا
وَفِي أَيَّامِهِ كَثُرُوا وَطَابُوا

والشاهد هنا منظر النبات الجديد • وقد كان أبو الطيب بدويّاً مثل هؤلاء الذين حاربوا سيف الدولة وكان هو شديد العطف عليهم والميل الى جانبهم ، وفي باديتهم بادية الشام ، كان قضى شظراً صالحاً من أيام شبابه •

وقوله :

إِذَا زَلِقَتْ° مَشِيَّتْهَا بِيْطُونِهَا
كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمِ

والبيت في صفة الخيل وتأمّل مثل انسياب الثعابين ببطونها هنا جلي

• كما ترى

وباب تشبيهات أبي الطيب وضروب مجازه مجال " واسع وأمثله مما
 منه شفاف " بتجارب سفره واحساسه بجمال الطبيعة كثير ، فنكتفي بهذا
 القدر الذي اوردناه وربما وقع في ما سنستشهد به من بعد ، على غير بابه
 إن شاء الله ، ما هو من معدنه وسنخه • هذا والضرب الثاني مما يقع
 من تجارب الطبيعة في شعر أبي الطيب ما يأتي به أثناء الأغراض التي
 يتناولها كأنه جزء " منها أو مستطرد " به عنها أو متمم لمعناها أو من
 هذا الجرى •

مثلا قوله :

فأضحّت كأنّ السّور من فوق بدئه
 إلى الأرض قد شقّ الكواكب والشهباً
 تصدّ الرياح الهوج عنها مهابةً
 وتفرّع منها الطير أن تلقط الحباً
 وتردى الجناد الجرود فوق جبالها
 وقد ندّف الصنبر في طرقها العطباً

تأمل قوله « تردي الجناد الجرود » وما فيها من محاكاة وقع
 حوافرها والصنبر بكسر الصاد وتشديد النون المفتوحة وسكون الباء هو
 البرود الشديد والعطب بضم العين وسكون الطاء هو القطن •
 والغرض هنا وصف قلعة مرعش • وموضوع الطبيعة المذكور
 أثناء هذا الغرض وفيه تجرّبة أبي الطيب مضمّة ، وصف هذه
 الرياح الهوج والطير التي أفرعها زفيف الريح • وكأنّ أبا الطيب قد
 نظر الى علقمة حيث قال :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُ هِن دَابِي

• أَي عَجَزَ عَنْ الطَّيْرَانِ لَفَزَعِهِنَّ •

ثم تبع هبوبَ الريحِ نِزولَ الثلجِ والبرَدِ وتناثرَ قُطُنِ الصقيعِ
وقد خَرَجَ أبو الطَّيِّبِ وصَحْبُهُ يَرُوضُونَ جِياداً جَرْداً بـ ولأبي الطَّيِّبِ
ارتِياعَ نَفْسٍ وبَهَجَتِهَا عِنْدَ الثلجِ • وَلَا يَخْلُو قَوْلُهُ : (وَقَدْ
نَدَفَ الصَّنْبَرُ فِي طَرَفِهَا الْعُطْبَا) مِنْ نَظَرِ إِلَى قَوْلِ التَّرْذُقِ :

وَأَقْبَلَ مَوْضُوعَ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ

عَلَى سَرَواتِ الشُّوقِ قُطُنٌ مُنْدَفٍ

وقول أبي الطيب بَعْدُ فِيهِ الحِرْكَةُ - تَنائُرُ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ قُطُنٌ ،
وَزَفِيفُ الرِّيحِ وَعَصْفُهَا •

وكأن قوله : (الجِيادُ الجردُ) فِيهِ نوعٌ مِنْ إِحْيَاءِ بِخَلْوِ المَكَانِ
مِنْ خُضْرَةِ النِّبَاتِ إِلا الشَّجَرَ العارِيَّ السَّليبَ •

ومما يَدُلُّكَ عَلَى قُوَّةِ انطباعِ صُورَةِ الثلجِ وإِحْساسِ البَرَدِ
عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلُهُ :

حَتَّى عَبْرَناً بِأَرْسَناسَ سَوايِحاً

يَنْشُرْنَ فِيهِ عِائِمَ التَّمْرِ سَكانِ

يَقْمِصْنَ فِي مِثْلِ المَدَى مِنْ بارِدِ

يَذَرُ الفُحُولَ وَهِنَّ كَأَخْصِيانِ

يَصِفُ بِهَذَا عُبُورَ خَيْلِ سِيفِ الدَوْلَةِ - فِي أوائلِ الرِّبيعِ يَعْزُمُونَ
أَرْضَ العَدُوِّ •

وقوله في صفة رياضة مهرد (الطَّخْرُور) زَمَنَ الشَّتَاءِ يَلْتَمِسُ
له كلاً وقد غطت الأرض الثلوج :

ما المَسْرُوجِ الخَضِرِ والحَدَائِقِ
يَشْكُو خَلاهَا كَثْرَةَ العَوَائِقِ

أقامَ فيها الثلجُ كالمُرافِقِ
يَعْتَقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ البَاصِقِ

وهذا البيت منبىء بتجربة خاصة قوية • وما أشكُّ أن أبا العلاء
أخذ منه حيث قال يصف برد بغداد :

والماءُ وردي لا تزالُ نواجذِي
في منتضاهُ سَوابِحاً كأوازِمِ

أحسبُه أخذ قوله (سوابِحاً) من صفة أبي الطيب الخليل وهن
يسبحن كالذي مرَّ من قوله :

حَتَّى عَبْرَنَ بِأَرْسَنَاسِ سَوابِحاً

وقوله (كأوازِمِ) - أخذه من هنا - (يَعْتَقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ

الباصق) •

وزاد قوله « منتضاه » يُضَمَّنُ ذلك تشبيهاً لحدهُ البرد بِحَدِّ

السيف ، وذلك قول أبي الطيب (في مثلِ المَدَى) •

ونعود إلى أبيات أبي الطيب :

أقامَ فيها الثلجُ كالمُرافِقِ

يَعْتَقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ البَاصِقِ

ثم مضى لاعاد من متفارق

بقائد من ذوبه وسائق

والتشبيه مأخوذ من معنى ما هو في معرض وصفح من الرياضة
والركض أعنى تشبيهه الذوب بالقائد والسائق • ويبدو لي أنه عنى
بالقائد ما يتقاطر من الثلج حين يكون عالقا بالصخور أو رؤوس الدثور
وبالسائق ما ينشق منه من وراء فينحدر له سائره •

كأئما الطخُرورُ باغي أبقر يأكل من نبت قصير لاصق
كقشرك الحبير عن السهارق

المهارق الاوراق البيض شبه بها بياض الثلج • وهذا التشبيه منتزع من
صناعة أبي الطيب من الكتابة والخط والمراجعة والكشط • وقد نبه على مثل
هذا من إحسانه أبو منصور في فصله البارع الذي عقده له في تيسية
الدهر •

وقل مكان مر به أبو الطيب ولم يسجل انطباعاً عن جوه
وطبيعة أرضه • من ذلك مثلاً قوله يصف لبنان في معرض مدحه أبا علي
هرون بن عبدالعزيز الأوراجي :

بيني وبين أبي علي مثله شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها علي مسالكي فكأنها بياضها سوداء

وتشبيه شم الجبال بأبي علي كأن فيه إحاء بتشبيهه برجال ذوى
هبة وعمائم ؛ وتشبيهه الجبل بالشيخ معروف في الشعر ، ومنه (وهو
كالأصل) قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في عرائين وبنه كبيراً أناس في بجاد مرملة

ومن ههنا انتزع أبو الطيب وحى صورته ذات الرجاا العَدَدِ وقد
شبهه رجااءهُ الضَّخْمَ البَعِيدَ بجبالِ لبنان ذاتِ العلوِّ يكسوها الثلج
الأبيضُ • ثم تذكَّر أن طريقه إلى تحقيق هذا الرجااءِ إنما يكون عليهن •
وهنَّ عَقَباتٌ :

لَبِسَ الثلوجُ بها على مَسالِكِي
فكأَنَّها بياضها سَوَداءُ

ومثلاً قوله : يصف بادية الشام في الصيف :

توهَّئها الأعرابُ سَوْرَةَ مُتَرَفٍ
تذكِّره البيداءُ ظلَّ الشراذقِ

فذكَّرتهم بالماء ساعة غبَّرت
سَمَاوَةَ كَلْبٍ في أنوفِ الحزائقِ

والشاهد هنا صورة الغبار وهو يُصِيبُ مع الحرِّ أنوفَ الجسوعِ
المرتحلين - وأحسبُه لم يخلُ ههنا من النَّظَرِ إلى أبي تمام في قوله :

من لمَّ يُقَدِّ فَيَطِيرَ في خَيْشُومِهِ
رَهَجُ الخَمِيسِ فلن يَقُودَ خَمِيساً

ثم انصرف أبو الطيب بعد إلى شيء من ذكر صفات الصحراء :

وكانوا يَرِوْءُونَ الملوكة بأن بَدَّوا
وأن نبتت في الماء نبت الغلافق

فهاجوك أهدى في الثفلا من نجومه
وأبدى بيوتاً من أداحي النفاق

وَأَصْبَرَ عَنْ أَمْوَاهِهِ ضَبَابَهُ

وَأَلْفَ مِنْهَا مُثْقَلَةً لِلدَّائِقِ

وبعض هذه الصفات التي خلعها على سيف الدولة من إلفِ شدةِ الحر والهجير والفتنة لوجهه إنما كانت صفةً هو وإلى ذلك أشار في قوله :

ذُرَانِي وَالْفَلَاةَ بِلَا دَلِيلِ

وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لثَامِ

فَأِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا

وَأَتَعَبُ بِالْإِنْسَاخَةِ وَالنَّقَامِ

عَيُونُ رَوَاحِلِي إِنَّ حِرَّتْ عَيْنِي

وَكَلِدُ بَغَامِ رَاذِحَةِ بَغَامِي

فَقَدْ أَرِدُ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ

سِوَى عَدِي لَهَا بَرَقَ النِّعَامِ

وَلَا أُمْسِي لِأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْفًا

وَلَيْسَ قَرِيٌّ سِوَى مَخِّ النِّعَامِ

وقد كان النعام على ذلك الزمان كثيراً في فلكوات بلاد العرب الى مصر فيوشك الآن أن يكون قد انحاز كله الى أعماق بلاد المنطقة الحارة ذات المطر - وقد جاء ذكره في شعر أبي الطيب كثيراً *

من ذلك قوله وقد نوسط أرض العرب في فراره من كافور الى الكوفة :

بُسَيْطَةٌ مَهْلًا سَقَيْتِ الْقَطَارَا
تَرَكَتْ عَيْونَ عَبِيدِي حَيَارَى

فَظَنُّوا النِّعَامَ عَلَيْكَ النَّخِيلَ
ووظنُّوا الصَّوَارَ عَلَيْكَ التَّنَارَا

فَأَمْسَكَ سَحْبِي بِأَكْوَارِهِمْ
وَقَدْ قَصَدَ الضَّحْكَ فِيهِمْ وَجَارَا

وقد أعادَ الإشارةَ الى هذا الحادثِ الصغيرِ الذي أضحكه هو واصحابه
في وَسَطِ أَحَاطَةِ المَهَالِكِ بِهِمْ ، في مَقْصُورَتِهِ (الاکلء ماشية الخيزلى)
فقال :

وَقَتْنَا لَهَا آيْنَ أَرْضُ العِرَاقِ فَقَالَتْ وَنَحْنُ بِتَرْبَانَ هَا
رَوَامِي الكِفَافِ وَكِبْدَ التَّوَهَادِ وَجَارَ البَوَائِرَةِ وَادِي الغُضَى
وَجَابَتْ بِسَيْطَةٍ جَوِّبَ الرَّدَاءِ بَيْنَ النِّعَامِ وَبَيْنَ المَهَا

وذكرُ النِّعَامِ وَالمَهَا هُنَا أَشْعَرُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي الآيَاتِ الرَّأئِيَةِ الَّتِي
تَقَدَّمَتْ لَهَا فِيهِ مِنْ صَوْرَةِ شَقِّ الصَّحْرَاءِ قِسْمِينَ ، فِيهِ حَيَوَانُهَا مَتَجَفَّلَاتُ ،
النِّعَامُ مِنْ هُنَا ، وَالمَهَا مِنْ هُنَا .

وَسَرْدُ المَوَاضِعِ أَسْلُوبٌ قَدِيمٌ "الآنَ أَبَا الطَّيِّبِ أَطَالَهُ وَحَرَاصَ
عَلَى إِيْصَالِنَا مِنْ تَيْهِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ العِرَاقِ مَوْضِعًا مَوْضِعًا ،
وَأَحْسِبُ أَنَّ مَدَّاحَ الرِّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَعَلُوا
مِنْ طَرِيقَتِهِمْ ذِكْرَ مَرَاحِلِ الطَّرِيقِ حَتَّى يَبْلُغُوا حَرَمَهُ الشَّرِيفَ
وَالحَرَامَ المَكِّيَّ ، فَكَلَّدُوهُ هُوَ أَوْلَا مَعَ عِلْمِهِمْ بِدَوْنِ شَكٍّ

بمذهبِ القُدَماءِ ، إذْ قَلَّ مِنْهُم مَّن لَّمْ يَكُنْ قَدْ قَرَأَ السُّعْلَقَاتِ وَعَرَفَ مِنْهَا أَمْثَالَ :

فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَّةُ الشَّرْبِ فَالشُّعْبَتَانِ فَالْإِيَّالَاءُ
وَفِي هَمْزِيَّةِ الْبُوصِيرِيِّ سَرْدٌ حَسَنٌ لِلْمَوَاضِعِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْحَرَمَيْنِ
فَقَالَ فِي آخِرِهِ :

هَذِهِ عِدَّةُ الْمَنَازِلِ لَا مَا عَدَّ فِيهِ السَّمَاكُ وَالنَّعْوَاءُ
فَكَأَنِّي بِهَا أَرْحَلُ مِنْ مَكَّةَ شَمْسًا سَمَاؤُهَا الْبِيَدَاءُ

وقد انتقلت هذه الطريقة من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في
التفصيح الى مدحه في اللسان العامي ، وافتن في ذلك شعراؤه أيما
افتتان وهذا باب تفصيله يطول وهو بعد خارج عما نحن بصدده
الا قليلا .

هذا ، والقصيدة المقصورة التي استشهدنا بأبيات منها ههنا عد
فيها أبو الطيب نحواً من عشرين موضعاً ، وصور فيها حركة انتقاله في
الصحراء ممزوجاً ذلك بما كان يساور نفسه من قلقٍ وغضبٍ
وروحٍ تحدد .

وافتن فجعل مطلع الصباح مؤذناً بدنو نهاية فراره وذلك قوله :
ولاح لها صَوْرٌ والصباحُ ولاح الشَّعْوُورُ لها والضحي
وصورٍ والشعور مَوْضِعَانِ بِالْعِرَاقِ . وإذ بلغهما وهنا من معالم
النجاة واقتراب المؤمن ، التفت الى ما كان قد تجشَّه من ليل الجسد
والخوف قبلهما .

فِيَاكَ لَيْلًا عَلَى أَعْكَشٍ أَحْمَ الْبِلَادِ خَفَى الصُّوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فِي جَوْزِهِ وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى
لَيْسَتْ صِفَةُ اللَّيْلِ هُنَا مَذْهَبَ تَقْلِيدِ شِعْرِي وَلَكِنَّهَا تَجْرِبَةٌ
تُحْسِنُ صِدْقَ إِحْسَاسِهَا ذِي الطَّابِعِ الْفَرْدِيِّ مِنْ أَوْلِ وَهَلَّةٍ وَلَكِنَّا
لَا نَقْبِلُ عَلَيْهِ بِالتَّأْمَلِ النَّاقِدِ الْعَمِيقِ الْإِعْجَابَ لِمَا تَعُودُنَاهُ مِنْ عَدَمِ
الْإِقْبَالِ عَلَى أَوْصَافِ اللَّيْلِ وَالشُّجُومِ وَالْقَمَرِ مِمَّا يَقَعُ كَثِيرًا بِطَابِعِ
مُشَاهِدَةٍ أَصِيلَةٍ التَّجْرِبَةِ عِنْدَ أَصْنَافِ الشُّعْرَاءِ * تَأْمَلْ قَوْلَهُ :
وَأَسْرَى فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَحَدِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ
وقوله :

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعَشٍ فِي دُجَاهَا
خَرَائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حُدَادِ
وقوله :

مَا بَالُ هَذِي الشُّجُومِ حَائِرَةٌ
كَأَنَّهَا الْعُمَى مَالَهَا قَائِدُ
وقوله :

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّمَتَّ رَأَيْتَهُ
يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبًا
كَالشَّمْسِ فِي كِبَرِ السَّاءِ وَضَوْوُهَا
يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبًا
وقوله :

كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
حَفَّ بِهِ مِنْ جَانِبِهَا ظَلَمٌ

هذا ، وفي شعر أبي الطيب انطباعات " قوية دقيقة " مختصرة " عن البلاد التي شاهدها كالذي مرَّ من صفة غبارِ سماوةٍ ككَلْبٍ وجبالِ لُبْنَانَ وثلجِ الشامِ وصلحِ رؤسِ جباله وكقوله يذْكَرُ ظهورَ الربيعِ عند عيد النيروز في بلادِ الفرس .

ما لَبِسْنَا فِيهِ الْأَكَالِيلَ حَتَّى لَبِسْتَهَا تِلَاعَهُ وَنَجَادَهُ
وكقوله في النيل :

وَسَمَّتْ بِهِ الْبِيَدَاءُ حَتَّى تَغَمَّرَتْ

من النيلِ واستذرت بظِلِّ الْمُقْظَمِ

وفي قوله (تغمَّرت) اشعار بكثرة ماء النيل وجسامته وفي قوله (استذرت بظل المقظم) اشعار بخصب مصر وخفض العيش الذي لقيه فيها وقد صرح بذكر هذا الخفض ، وجعله سبب سقَمِهِ في التصيدة الميسية الرائعة التي وصف فيها الحمى فقال :

وزائرتي كأنَّ بها حياءً فليس تزورُ إلاَّ في الظلام
بذلتُ لها المظارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيِّقُ النجْدُ عن نَفْسِي وعنِها فتوسِعُهُ بأنواع السَّقام
إذا ما فارقتني غَسَّلتني كأنَا عاكِفَانِ على حرام
كأنَّ الصُّبْحَ يطردها فتَجْرِي مدامِعُهَا بأرْبَعَةٍ سَجَام
أراقبُ وقتها من غيرِ شَوْقٍ مراقِبَةُ المشوقِ المُستَهام
ويصدِّقُ وعدها والصدِّقُ شر إذا ألقاك في الكُرْبِ العظام

وهنا تأمل دقيق . وليس وصف الحمى بأبعد ، في باب الطبيعة عن وصف الأسدِ والنعامِ ولا سيَّما ونَحْنُ الآن نَعْلَمُ أَنَّ سببها حيوان

صَغِيرٌ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ ، وَإِنَّمَا تَحْسِسُ النُّفُوسُ أَثْرَهُ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَمَنْ جَيِّدٌ مَا يَجِيءُ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ مُخْتَصِرًا لِمُلَاحِظَاتِهِ وَإِنطِبَاعَاتِ تَجَارِبِ الطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِهِ مَا يَقَعُ فِي بَابِ النُّسَيْبِ وَبَعْضِ أَغْرَاضِهِ الْأَخْرِيَّاتِ مِنْ صِفَاتِ الْحَيَا وَذَكَرَ النِّسَائِمَ ، مِثْلَ قَوْلِهِ :

رَعَى اللَّهُ عَيْسًا فَارْقَتْنَا وَفَوْقَهَا
مَهَا كَلْهًا يُوَلَّى بِجَفْنِيهِ خَدَّهُ

بَوَادٍ بِهِ مَا بِالْقَلُوبِ كَأَنَّهُ
وَقَدْ رَحَلُوا جِيدَ تَنَاطُرِ عِقْدِهِ

إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ
تَفَاوَحَ مِسْكُ الْغَانِيَاتِ وَرَثَدَهُ

وَالشَّاهِدُ هُنَا هَذَا الْأَرْجُ الْعَطِيرُ الْمُتَفَاوَحُ مِنَ الرَّثَدِ وَتُخَالِطُ نَسِيمَهُ الرِّقِيقَ عُظُورُ الْغَانِيَاتِ وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ هُنَا لَمْ يَخْلُ مِنْ أَخْذٍ مِنْ عُلُقْمَةٍ حَيْثُ قَالَ ، مِنْ مِيمَتِهِ الْفَرِيدَةِ :

يَحْمِلْنَ أَتْرُجَةً نَضَخَ التَّعْبِيرُ بِهَا
كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْسُومٌ

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

فَدِينَاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبًا
فَأَنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالغَرْبَا

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعَ نَنَا
فَوَادًا لِعِرْفَانِ الرِّسْمِ وَلَا نَبَا

جعل أبو الطيب ههنا رُبْعَهُ رَمَزًا لِلْكَوْنِ كَثَلَهُ وَلِلطَّبِيعَةِ كُلِّهَا وَمَحْبُوبَتَهُ
حَيْثُ كَانَتْ مَقِيْمَةً بِهِ تَطَّلَعُ وَتَغِيْبُ :

نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كِرَامَةً
لِمَنْ بَانَ عَنْهُ إِنْ نَلِمَ بِهِ رَكْبًا

والمعروف عند الربوع الوقوف والاستيقاف كقول امرئ القيس :

قَمَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيْبٍ وَمَنْزَلِ

وقوله :

وَقَوِّفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيْهِمْ

وقول أبي الطيب (نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي) فِيهِ إِفْصَاحٌ بِتَجْرِبَةٍ

فَرْدِيَّةٍ سِوَى الْمُتَوَاضِعِ عَلَيْهِ فِي نَعْتِ الْأَطْلَالِ •

وَنَحْنُ لَا نَسْلُكُ بَعْدَ الْإِنِّ أَنْ نَتَرَجَّلَ مَعَ الشَّاعِرِ وَنَمْشِي وَحَوْلَنَا

كَوْنُ الطَّبِيعَةِ وَالذِّكْرِي الْعَرِيْضَةِ وَلَا يَخْلُو مِثْلَ هَذَا النَّمْشِي مَعَ مَا

يُصَاحِبُهُ مِنْ تَأْمِثِ حَزِينٍ وَادِّكَارٍ مِنْ نَوْعِ نَشْوَةِ وَارْتِيَاحِ فُقَادِ

وَوَاقِعِيَّةٍ حَيَّةٍ •

وَاحْسِبْ أَنْ مَنَشَأَ هَذِهِ الْوَاقِعِيَّةِ مِنْ كَوْنِ أَبِي الطَّبِيبِ قَدْ كَانَ مَعَهُ

صَحْبٌ يَشَارُ كَوْنَهُ النُّزُولَ وَالْمَشْيَ ، لَا وَاقِفِينَ عَلَيْهِ مَطِيَّهِمْ كَمَا عِنْدَ

أَمْرِيءِ الْقَيْسِ وَطَرْفَةٍ ، وَلَا مُسْتَوْقِفِيَّهِمْ هُوَ أَوْ دَاعِيِيَّهِمْ إِلَى أَنْ يَعْجُجُوا

وَيَعْجُجُوا كَمَا هُوَ الْمَذْهَبُ فِي النَّسِيبِ •

وَمَصْدَرُ النَشْوَةِ وَالْإِرْتِيَاحِ هَذَا الْغَيْثُ الَّذِي حَسَّنَ مَنَظَرَ الْأَرْضِ

وَطَابَ نَسِيْمَتُهَا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى مَا أَوْقَعَهُ بِمَكَانِ الرَّبْعِ مِنْ تَعْمِيَّةٍ مَعَالِمِ

وَمَحُو آثَارِ :

تَذْمُ السَّحَابِ التَّغْرِ فِي فِعْلِهَا بِهِ
وَتَعْرِضُ عَنْهَا كَلِمًا طَلَعَتْ عَنْهَا.

قوله التَّغْرِ فِيهِ فَرَحَةٌ بِالسَّحَابِ وَحُبٌّ لَهُ •
وَلَا غَرَّوْا فَبِالْبَادِيَةِ نَشَأَ وَكُحِبُّ أَهْلِهَا التَّغْيُوثُ وَبُرُوقَتِهَا أَحَبُّهُ ،
وَهُوَ الْقَائِلُ :

فَقَدْ أَرَدُ الْمِيَاهَ بغير هَادٍ سَوَى عَدَى لَهَا بَرَقَ الغمام
وَهُوَ هُنَا يُخَاطَبُ السَّحَابَ مَخَاطَبَةَ الصَّدِيقِ الَّذِي نَهَ بُوْدَهُ
التَّعْهَدُ الطَّوِيلُ يَذْمُهُ لِلَّذِي فَعَلَ بِالرَّبْعِ وَيَعَاتِبُهُ وَيَعْرِضُ عَنْهُ وَهُوَ
- أَيِ السَّحَابِ - عَلَيْهِ مُتَقَبِّلٌ بِلَمَعَةِ الحُرِّ الأغرِّ الجميلِ •
وَهَلْ تَنَكَّرَ هُوَ لِلسَّحَابِ بَعْدَ هَذَا الوَدِّ كَمَا هُوَ شَأْنُ رُفَقَاءِ
هَذِهِ الدُّنْيَا فِي التَّنَكُّرِ ؟

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلًا تَقَلَّبَتْ
عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كَذِبًا
ثُمَّ يَأْخُذُ أَبُو الطَّيِّبِ فِي التَّمَزُّجِ بَيْنَ حَاضِرِ ارْتِيَاخِهِ لِلرَّبْعِ وَالْأَصِيلِ
وَالضُّحَى وَالنَّسِيمِ وَغَايِرِ مَا كَانَ ، مِنْ عَهْدٍ مودَّةِ الحَبِيبِ وَمَا يَثِيرُهُ
ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ مِنْ طَرَبٍ ، وَمَا تَعَوَّدَ بِهِ خِفَّةُ ذَلِكَ الطَّرَبِ (وَقَدْ
أَخَذَتْ الآنَ تَتَقَدَّمُ بِهِ السَّنُّ) إِلَى سَالِفِ عَصْرِ صَبَاحِ أَيَّامٍ كَانَ
غُلَامًا يَتَوَكَّبُ وَيَتَّبُ وَشَابًا يُقَدِّمُ إِقْدَامَ الأَتِيِّ ، أَيِ السَّيِّلِ أَوْ
كَمَا قَالَ :

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الأَتِيِّ كَأَنَّ لِي
سَوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَرُّ

وهذا كما ترى من أجود ما يقال من صفة حساسة الشباب وذکر السيل فيه ما قدّمنا ذكراً من صفة الطبيعة ضمن التشبيه *

وكيف التذاذي بالأصائل والضحى

إذا لم يعد ذلك النسيم الذي هباً

ذكرت به وحلاً كأن لم أفز به

وعيشاً كأنى كنت أقطعه وثباً

البيت الاول فيه إعلامنا انه التذ هبوب النسيم وأصائله وضجاء

والبيت الثاني فيه الصورة التي زعمنا انه اتزعها من تذكر أيام صباه *

وفتاة العينين قتالة الهوى

إذا نفحت شيخاً روائحها شبا

لها بشر الدر الذي قلدت به

ولم أر بدرأ قبلها قلد الشهباً

وكان عهد أبي الطيب بهذه الفتاة غير بعيد ، وكان قوله إذا نفحت شيخاً

روائحها شبا - وهذا شبيه بقوله :

تفأوح مسك الغايات ورنده

وقوله :-

ولم أر بدرأ قبلها قلد الشهباً

فيه معنى ما ذكرناه من قوة احساسه بضوء البدر وألق النجوم وانعكاس روح هذا المعنى في تعبيره - وصورة الحساء ههنا لا يخفى أنها ذات ألق وهجاج اتزعه الشاعر من ضوء الشمس والبدر والدرارى والشهب *

وتأمل قوله :

وَمَنْ يَصْحَبِ اسْمَ ابْنِ الْعَيْدِ مُحْسَدٍ
يَسِرُّ بَيْنَ أَنْيَابِ الْأَسَاوِدِ وَالْأَسْنَدِ

يَسْرُهُ مِنَ اسْمِ الْوَحْيِ يَعَاجِزُهُ
وَيَعْبُرُ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ عَلَى دُرْدِ

كفاننا الربيع العيس من بركاته
فجاءته لم تسمع حذاء سوى الرعد

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه
كرعن يسبت في اناء من الورد

وهنا يشعرتنا بأن سفره كان نهارا في ظل الغمام وصوت الرعد البعيد
غير المرعب لبعده ، كأنما هو حاد يسوق ابله ، وقد نشطت لاعتدال
الهواء ولطفه وشمول النعمة والرخاء ، حتى انهن قد داخلهن الحياء
لما رأين كثرة الماء ، ووجدن انفسهن مترفات قد رقت شفاههن حتى
صرن كالسبت وهو جلد الماعز الرقيق المدبوغ وجعلن يكرعن
بها من غدران يحفد بهن الزهر ، كأنهن يكرعن من آنية فضة
تزين حواشيها الورد .

كأننا ارادت شكرنا الارض عنده
فلم يخلينا جوه هبطناه من رقد

وعنى بالرقد هنا الجمال والارج الحسن . وشكر الارض
تفحتها بالخضرة والنشوار - كما قال ابن الرومي :-

شَكَرْتَ نِعْمَةَ الْوَلِيِّ عَلَى الْوَسْمِيِّ

ثُمَّ الْعَهَادِ بَعْدَ الْعَهَادِ

وقد نعلم ان أبا الطيب كان من رِوَاةِ شِعْرِهِ وما خلا ههنا من إشارة

خَفِيَّةٍ إِلَى مَا قَدْ قَالَ •

لَنَا مَذْهَبُ الْعُبَّادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ

وَإِتْيَانِهِ نَبْغِي الرِّغَائِبِ بِالزُّهْدِ

رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ

بَأَرْجَانِ حَتَّى مَا يَسْنَا مِنَ الْخُلْدِ

تَعَرَّضُ لِلزُّوَارِ أَعْنَاقُ خَيْلِهِ

تَعَرَّضُ وَحَشٍ خَائِفَاتٍ مِنَ الطَّرْدِ

وَتَلَقَى نَوَاصِيهَا التَّمَايَا مَشِيحَةً

وَرُودَ قَطَا صُمَّ تَشَايَحْنَ فِي وَرْدِ

قالوا جعل القطا صُمًَّ لاهتمامها بالطيران وانشغالها به عن كلِّ شَيْءٍ

سِوَاهُ وَمِنْ تَأْمَلِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الدَّالِيَّةَ مَا صَرَخَ فِيهِ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْهَا

بِذِكْرِ الطَّبِيعَةِ مِنْ رَيْعٍ وَغَيْثٍ وَزَهْرٍ وَمَا لَمْ يُصْرَحْ وَلَكِنْ جَاءَ

بِهِ فِي مِعْرَاضِ الْمَدْحِ يَجِدُ أَنَّهُ ضَمَّنَهَا تَجْرِبَةً سَقَرَهُ إِلَى ابْنِ الْعَمِيدِ

كُلُّهَا - صَوْتُ الْأَسْوَدِ ، وَدَبِيبَ الْحَيَّاتِ ، وَصَوْرَ الْوَحْشِ

الْناْفِرَاتِ وَضُرُوبِ الْقَطَا وَالطَّيْرِ الْوَارِدَاتِ الْمِيَاهِ ••• ثُمَّ نَقُورَ نَفْسِهِ

هُوَ شَيْئًا مِنْ ابْنِ الْعَمِيدِ • وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ عَابَ عَلَيْهِ قَصِيدَتَهُ

الرَّائِيَةَ •

بَادٍ هَوَاكَ صَبَّرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا

فإن صحَّ هذا فهوَ لا ريب من أسباب النفور • وقد كان ابنُ العميد
من أكابر الكتاب في زمانه - ولا يخلو مذهبه من كثرةٍ وظلٍّ ثقيلٍ
أشبه شيء مع بعد القياس بموجة الشعر الحديث التي تجتاحنا الآن •
هذا واحسب أن ابا العلاء قد أخذ من أبي الطيب الدالية هذه
في وصفه سقّره الى العراق حيث قال :-

وبتة بمُستنِّ اليراييمِ راقِداً
يُطوِّقنَ حَوَليَ من فرادى ومن شقّع
فهذا كأنه مؤكّد من قول ابي الطيب يسير بين أنيابِ الأسودِ
والأسد • وحيث ذكر الابل فقال :-

لقَد زارني طَيْفُ الخيالِ فهاجني
فهل زار هذِي الِابِلَ طَيْفُ خيالِ

لعل كراهها قد أراها جذابها
ذوائبَ طلحٍ بالعقيقِ وضالِ
فهذا كأنه تفسّريح من قول أبي الطيب « استَحِينِ الماءَ يعرض نفسه »
وقوله « كرعن° بسبتٍ في إناءٍ من الورد » • ومنا يُصحّح ما نزعته
هنا ويؤكّده قولُ أبي العلاء :

وأعجبها جذبُ العضاهِ أنوفها
بسئلي إبار حُدّدت° ونِصالِ
فجعل الانف مكانَ المشافر وجعل العضاهَ وشوكها مكانَ الورد
وفي الورد شوكٌ إلا انه رقيقٌ لطيفٌ غيرٌ بدويٍّ خشنٍ كشوكِ
السيال والطلح وهلم جرا •

ومما يدخل في باب الطبيعة ، وان بدا كأنه غير داخل فيها ، ما كان
أبو الطيب يجيء به في شعره من صور الحركة والمناظر التي تبدو
معها - مثل قوله :-

وتضحى الحصون المشمخرات في الذرا
وخيلك في أعناقهن قلائد
فهذا منظر ذو حركة ملتبس فيه الإنسان وعمله بالطبيعة كل
التباس ، ونحو منه قوله الذي مر آتفا :

حتى عبرن بأرسناس سوابحاً
ينشرن فيه عائم الفرسان

فكأنهن سفن لهن قلوب كما ترى •

وقوله :

كلما رحبت بنا الروض قلنا
حلب قصدا وأنت السيل

فقوله رحبت منبى بحركة لما فيه من قدوم وترحيب . ثم فيه
معنى اتساع الروض وبهجة وانصباع ذلك في فؤاد الشاعر مع شدة
تجاوزه له :

وقوله :-

فلما تجلنى من دلوك وصنجة
علت كل صود راية ورعيل

ولك ان تتخيل هوال هذا المنظر وروعه •

على طَرُقٍ فيها على الطُّرُقِ رَفَعَةَ
 وفي ذِكْرِهَا عند الأَنيسِ حَمُول
 ورُعْنٌ بنا قَلْبَ الثُّرَاتِ كَأَنَّمَا
 تَخِرُّدٌ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سَيُول
 يَطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلُّ سَابِحٍ
 سَوَاءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيل
 تَرَاهُ كَأَنَّ المَاءَ مَرَّ بِجَسْمِهِ
 وَأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحَدَاهُ وَتَلِيل
 منظر الجبال على رؤوسهن الرايات والخيلُ مَدَّةُ الأفقِ • ثم صورة
 الخيول والنُرسانِ المندفِعةِ الى نَهْرِ الثُّرَاتِ أَمْثالَ السَيُولِ •
 والتشبيهُ نَفْسُهُ يَتَضَمَّنُ تَجَرُّبَةً من الشَّاعِرِ لِمَنْظَرِ السَيُولِ وَهِيَ تَخِرُّدٌ
 فِي نَهْرٍ كَبِيرٍ ثُمَّ بَعْدَ دِفَاعِ أَوَائِلِ مِلْتَقَاهُ بِهِ تَسْتَرْجُ أَمْوَاهُهَا وَتِيَّارُهَا
 بِأَمْوَاهِهِ وَتِيَّارِهِ وَمِثْلُهُنَّ هَوْلَاءِ النُّرْسَانِ وَخَيْلُهُمْ مَنْدَفِعِينَ حَتَّى إِذَا
 صَارُوا إِلَى المَاءِ تَفَرَّقُوا فِيهِ يَدْفِعُونَ أَمْوَاغَهُ وَتَدْفِعُهُمْ • وَقَدْ غَلَبَ
 اتساعُ النَّهْرِ عَلَى مَنْظَرِ قُوَّةِ انْحِدَارِهِمُ العَظِيمَةِ مِنْ قَبْلِ • ثُمَّ صَارُوا
 مِنَ النُّهْرِ جِزَاءً خِيُولَهُمْ فِيهِ سَابِحَاتٌ • كَأَنَّ أَجْسَامَهُنَّ قَدْ اقْتَضَعَهَا المَاءُ فَذَهَبَ
 بِهَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ كُلِّ فَرَسٍ إِلَّا رَأْسُهُ وَعُنُقُهُ ••••• طَافِيًا بِهِنَّ عَلَى
 المَوْجِ ••••• كَأَنَّهُ مِنْ أَفْرَاسِ البَحْرِ الَّتِي كُنَّا حَتَّى زَمَانٍ قَرِيبٍ نَرَى
 صُورَهُنَّ مُتَفَرِّقَاتٍ هَكَذَا عَلَى عَرَضِ النِّيلِ • هَذِهِ الصُّورَةُ نَادِرَةٌ "مذهلة"
 ذات انطباعٍ نَفْسِيٍّ دَقِيقٍ •

وقد قال ابن الاثير في باب موازنته بين أبي الطيب والطائين :-

« ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصِفُ لسانه ما أدى إليه عيانه » وليته قال : وجنائه فان رؤية القلبِ أعم وادق من رؤية البصر ولذلك قال تعالى : جل من قائل : « فإتتها لا تعى إلا بِنصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور » وقال سبحانه وتعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله مع رؤية بصره بصيرة - ولم تكن الجيوش في زمانه تحاربُ من وراء جدار الا عند الحصار • وكان ولع ابي الطيب ينعت حركتها عظيما وما أحسب مصدرَ ذلك الا أنه كان يحب الهواء الطلقَ مع حركة المجال الرحيب ... فالذي رأينا من صورة الخيلِ قلائدَ حوّل ذرّاً الحِصُونِ ومن صورهنَّ وهنَّ يثنَّينَ كلَّ طَودٍ كأنهنَّ رياحٌ حَقَقْنَ بغصنٍ رَطَبٍ وإذ هُنَّ يعبرنَ أرسناس وينثرن فيهِ العمائم وإذ هُنَّ يعلّون الهضاب وعليهنَّ الرايات واذ هُنَّ في الفرات كلُّ منهنَّ مقبل •

« رَأْسٌ وَحَدَاهُ وَتَلِيلٌ » •

كل: هذه صور " من الطبيعة الطلقة امتزجت بها حركة الشاعر والمشاهد الرائعة التي ملكت عليه فؤاده وبصره •

تأمل قوله يَصِفُ جيوش سيف الدولة وخيله :

تبارى نجوم القذفِ في كلِّ لَيْلَةٍ

نجوم له منهنَّ ورد وأدْهم

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَسْلَنَّهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرٌ بَقَايَا مَعْرَكَةٍ * وَلِعَمْرِي إِنْ أَمْثَلَهَا لِنَرَاهَا
مُصَوَّرَةً فِي رَسْمِ الْفَنَانِينَ الْأُورِبِيِّينَ فَنَعَجَبُ بِهَا وَمَا هِيَ لَوْ قَدْ تَفَرَّسْنَا
إِلَّا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ إِسْلَامِيٌّ يُنْظَرُ إِلَى نَحْوِ هَذَا الَّذِي اسْتَشْهَدْنَا بِهِ
مَسْلُوسُونَ عَلَيْهِمُ الْعِنَائِمُ جَعَلَهُمْ رَمْزًا لِعَسْكَرِ نَابَلْيُونِ وَمَا أَرَى أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ
إِلَّا بِضَاعَتِنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا مِثْلًا لِلْفَنَانِ الْإِسْبَانِيِّ غَوِيَّةَ صُورَةٍ فَرَسَانَهَا مَغَارِبَةٌ
مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ وَنَحْوِ قَوْلِ عُلُقَمَةَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّمَاءِ فِدَا حِضِّ

بَشِكَّتَهُ لَمْ يُسْتَلَبْ وَاسْلِيْبِ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيْرُهُنَّ دَيْبِ

فَلَمْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةٌ بِلْجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقِنَاةِ نَجِيْبِ

وَالَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاظٍ كَأَنَّهُ

بِمَا ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيْبِ

هَذَا وَنَعُودُ إِلَى آيَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ :-

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَسْلَنَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

فَهَنَّ مَعَ السَّيْدَانِ فِي الْبَرِّ عَسَلٌ

وَهَنَّ مَعَ النَّيَّانِ فِي الْمَاءِ عَوْمٌ

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَمَلَنَّهُ

وَمَنْ قِصَدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة النظيعة منظر بقايا معركة * ولعمري ان امثالها لراها
مُصَوَّرَةٌ فِي رَسْمِ الْفَنَانِينَ الْاُورِيبِيِّينَ فَنَعَجَبُ بِهَا وَمَا هِيَ لَوْ قَدْ تَقَرَّرْنَا
الَا لِأَنَّ الْاَصْلَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ اِسْلَامِيٌّ يُنْظَرُ اِلَى نَحْوِ هَذَا الَّذِي اسْتَشْهَدْنَا بِهِ
مَسْلُوسُونَ عَلَيْهِمُ الْعَنَائِمُ جَعَلَهُمْ رَمْزًا لِعَسْكَرِ نَابَلْيُونِ وَمَا اَرَى أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ
الَا بِضَاعَتِنَا رَدَّتْ اِلَيْنَا مِثْلًا لِلْفَنَانِ الْاِسْبَانِيِّ غَوِيَّةَ صُورَةِ فِرْسَانِهَا مَغَارِبَةٌ
مِنْ قَوْلِ اِبْنِ الطَّيِّبِ وَنَحْوِ قَوْلِ عُلُقَمَةَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ

بَشِكَّتَهُ لَمْ يُسْتَلَبْ وَاسْلِبِ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُ هِنٍّ دَيْبِ

فَلَمْ يَنْجُ اِلَّا شَطْبَةٌ بِلْجَامِهَا

وَاِلَّا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبِ

وَاِلَّا كَمِيٌّ ذُو حِفَاظٍ كَأَنَّه

بِمَا اِبْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبِ

هَذَا وَنَعُودُ اِلَى اَيَّاتِ اِبْنِ الطَّيِّبِ :-

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَمَلَنَهُ

وَمَنْ قِصَدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

فَهَنَّ مَعَ السَّيْدَانِ فِي الْبَرِّ عَسَلٌ

وَهَنَّ مَعَ النَّيَّانِ فِي الْمَاءِ عَوْمٌ

وهُنَّ مع الغزلان في الوادِ كَمَنَّ

وهن مع العقبانِ في النيقِ حَوَم

وقد يخيل للمرء اول وهلة ان هذا مَجِيءٌ به على مذهب ائبالبعة والله
در ابن الأثير اذ فطن الى أنه ما كان الا وَصْفاً عن مشاهدة من
قلب بصير *

وباب الحروب في شعْر أبي الطيبِ كبيرٌ : ربما خرج بنا ما نحن
بصدده ، فطلع الى ما وقع فيه ملابساً للطبيعة إلباعاً مكتفين بهذا القدر الذي
مرّ ومشيرين الى امثاله ما وصف ابو الطيب ركوب الفلّك - كالاييات
التي استشهدنا بها من عبور أرسناس والفرات وكتوله :

تلقى بهم زبدَ التيارِ مقربَبة

على جحافلها من نضحِه رثمٌ

وليست المقربة ههنا بخيل وانما هي سفنٌ واستعار لها جحافل أي
سفناً كما للخيل سفاهٌ والرثمٌ بياض في الشفة العليا شبّه به بياض
الموج *

والموج مما يشبه بالخيل كثيراً *

دُهمٌ فوارسُها ركابُ أبطنِها

مكدودةٌ ويقومُ لابلها الألم

وكما وصف أبو الطيب السفن صنع كذلك أبو العلاء - وذلك قوله :

على نجاتٍ من الفِرْصادِ أيدها

رَبه القَدومُ بأوصالٍ واضلاع

سارت فزارت بنا الأَنْبَارَ سَالِمَةً
تَرْجَى وتُدْفَعُ فِي مَوْجٍ وُدْفَاعٍ

وصورة المجذاف والجهد اوضح في قول ابى الطيب :

دُهُمٌ فَوَارِسَهَا رُكَّابُ ابْنِهَا
مَكْدُودَةٌ وَيَقُومُ لِابْنِهَا الْأَلَمِ
واحساس الاعشى بحركة القارب وموسيقا لظم التيار اطرافه أدق
في قول أبى العلاء :

سَارَتْ فَزَارَتْ بِنَا الْأَنْبَارِ سَالِمَةً
تَرْجَى وتُدْفَعُ فِي مَوْجٍ وُدْفَاعٍ

وللسابق بَعْدُ فضيلة على اللاحق . والله تعالى اعلم .

ولأبى الضيب في الصيد والكلاب والطرْدِ قِطْعٌ وَأَرَايِزٌ لَا تَخْلُو مِنْ
احساس الطبيعة واحسان وصفها . من ذلك ما تمثلنا به آنفا من قوله :
مَا لِلرَّوْجِ الْخُضْرِ وَالْحَدَائِقِ يَشْكُو خَلَاهَا كَثْرَةَ الْعَوَائِقِ
ومنها :

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ
نَدِي الْخُزَامِي ذَفَرِ الْقَرْفَلِ
عَنْ لَنَا فِيهِ مِرَاعِي مُغْزَلِ
اغْنَادِ حَسَنِ الْجِيدِ عَنِ لُبْسِ الْحَلِي
ولا لغير الغاديات الهطائل
مُحَلَّلِ مِلْوَحَشٍ لَمْ يَحَلَّلِ
مُحَيِّنِ النَّفْسِ بَعِيدِ الْمَوْئِلِ
وعادة العرّى عن التفضّل
ثم اخذ بعد في نعت كلبه :

لَهُ إِذَا أَدْبَرَ لِحِظِّ السُّقْبَلِ

كَأَتَّمَا يَنْظُرُ مِنْ سَجْنَجَلِ

يُتَعَمَّرُ جُلُوسَ الْبَدْوِيِّ الْمِصْطَلِيِّ يَكَادُ فِي الْوُثْبِ مِنَ التَّقَتَّلِ
يَجْمَعُ بَيْنَ مَتْنِهِ وَالْكَلْكَالِ
ذِي ذَنْبٍ اجْرَدٍ غَنَرِ اعْزَلِ
ثم اخذ بعد يصف قتاله مع الغزال حتى اصطاده * وقد عيب عليه
قوله :-

كَانَتْهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالْمَقْتَلِ عِلْمٌ بِقِرَاطِ فَصَادِ الْأَكْحَلِ
فَقَالُوا إِنْ الْأَكْحَلُ لَيْسَ بِمَقْتَلٍ - وَعِنْدِي أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ مَا أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَكْلِبَهُ
اصْطَادَ عَلَيْهِ الْغَزَالَ وَلَمْ يَقْتُلْهُ حَتَّى ذَكَرَاهُ هُوَ فَهَذَا عِلْمُهُ بِالْمَقْتَلِ أَنَّهُ تَجَنَّبَهُ وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ *

وقال في كلب آخر وذكر المنظر وكان جبليا :

وَشَامِخٍ مِنْ الْجِبَالِ أَقْوَدِ
فَرْدٍ كِيَا فَوْخِ الْبَعِيرِ الْأَصِيدِ

تأمل هذه الصورة * * * * * خنزوانة هذا الجبل الشبيه بأعلى رأس البعير
وهو يرغو ويتشامخ *

يُسَارُ مِنْ مَضِيْقِهِ وَالْجِلْمِ
فِي مِثْلِ مَتْنِ الْمَسَدِ الْمُعْقَدِ

وهنا تجربة ومشاهدة * وما أحسب احدا جرب ممرات الجبال الا يرى
جودة ما ذكر ابو الطيب ههنا *

ثم اخذ في وصف الصيد وكيف ثار الخشف من مرعاه الاخضر النضر
الندى فأصابه الحتف ، ولكل أجل كتاب *

فثار من اخضر معطورٍ ندى
كأنته بدء عذارٍ الأَمُرد
فلم يكده الا لحتفٍ يهتدى

ومن قطعة المعجبات ، وهي ما يلحق بباب الصيد قوله يصف
عين باز :

إذا نظرَ البازُ في عطفه كستته شعاعاً الى المنكب
وهذه صورة ناطقة •

وباب الشَّراب يلحق بباب الصَّيد ، ولم يكن أبو الطيب بصاحب
شراب ولكن له في ذلك البيت والبيتان ، وقد يحسن كل الاحسان
كعادته فيسا يقول ، مثلاً :

ووقتٍ وفى بالدَّهْرِ لى عند واحدٍ
وفى لى بأهليه وزاد كثيراً
شربت على استحسان ضوءٍ جينه
وزاهرٍ ترى للماء فيه خيراً

وقوله :-

أحب حمصاً الى خنصرة
حيث التقى خدها وتفتح لُبنان
وصفت فيها مصيف بادية
إن أعشبت روضة رعيها
أو عرضت عانة مزرعة
والخييل مطرودة وطاردة
وكل نفس تحب محياها
وثغرى على حياها
شتوت بالصحصحان مشتاه
أو ذكرت حلة غزوناها
صدنا بأخرى الجياد أولاه
تجر طولى القنا وقصراها

وما أَظُنُّ انَّ أَحَدًا اثْبَتَ صُورَةَ تَفْاحِ لَبْنانِ كَمَا فَعَلَ اِبُو الطَّيِّبِ هُنَا
وفي هذه القصيدة لَفَتَاتٌ أُخْرَى بَارِعَاتٌ جَدًّا - مثل قوله :

تَعُومُ عَوْمَ القِذَاةِ فِي زَبَدٍ
مَنْ جُودٍ كَفَّ الأَمِيرَ يَغْشاها

والصورة مُنْتزَعَةٌ مِنْ إِزْبَادِ السَّيُولِ وَمَا يَطْفُفُو عَلَيْهِ مِنْ غُثَاءٍ •
وقوله :-

أَبَا شُجَاعٍ بِفارسٍ عَضُدَ الدَّوْلَةِ فَتًّا خَسِرُوا شَهْشاها
أَسامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَأَنَا لِدَهْمَةٍ ذَكَرْناها
تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الكَلَامِ لَنَا كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عَظْماها
وهذا مَوْضِعُ الاسْتِشْهادِ وَفِي طَيْبِهِ مَعْنَى مِشاهِدَةٍ سَكابَةٍ كَبيرةٍ تَبْرِقُ
وتَرى صِغارَ السَّحْبِ نَحوها مَرَقِلاتٌ • وَعَيْنُ هَذَا المَعْنى أَشارَ إِلَيْهَ فِي قَوْلِهِ
الَّذي مَرَّ أَنفا :-

تَلالِكُ وَبَعْضُ الغَيْثِ يَتَّبَعُ بَعْضَهُ
مِنَ الشَّامِ يَتَلَوُ الحاذِقُ المَتَعَلِمُ
ومما جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ القَنْصِ وَذِكْرِ اللَّيْلِ وَالصَّيْدِ وَالشَّرابِ قَوْلُهُ :-

تَذَكَّرْتُ ما بَيَّنَّ العُذَيْبُ وَبارِقَ
مَجْرَعُ عِوَالِينا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَقْتُلُونَ قَنِيصَهُمْ
بِفَضْلَةٍ ما قَدِ كَسَرُوا فِي المِبارِقِ

تأمل هنا تَسْجِيلَهُ لِيَنَّ ثَرى الثَّوِيَّةِ وَطَيْبَ مَسِه - وَوازِنَ بَيْنَ هَذَا
قَوْلِهِ الَّذي مَرَّ أَنفا :

لَمْ تَفْتَقِدْ مِنْكَ مِنْ مِزْنِ سِوَى لُثْقٍ

وقوله :-

كَأَنَّ الْجَوَّ وَعَثَ أَوْ خَبَارَ

الوعث الرمل الذي تغيب فيه الأرجل ، هكذا شرحه العكبري ، والخبار الأرض اللينة - لينا تسوخ فيه الأقدام كما يبدو من السياق ، وهذا خلاف الثرى الذي كأنه عنبر في المرافق بلا شك . وقبل الشطر الرائي الذي استشهدنا به آخرا قوله ، وفيه روح ما ذكرناه من خلط منظر الطبيعة بحركة القتال :

فَأَقْبَلَهَا الْمَرْجُ مُسْوَمَاتٍ ضَوَامِرَ لَا هِزَالَ وَلَا شِيَارَ
وقوله لا شيار أي لاسمان

تثييراً على سلميةً مسبطراً

أي عجاجاً مُسَبِّطِراً أي متدا قال الآخر يصف سير ناقته :

وَمِنْ سَيْرِهَا الْعَنْقُ الْمَسْبُطُ وَالْعَجْرِيَّةُ بَعْدَ الْكَلَالِ

هذا

تثييراً على سلميةً مُسَبِّطِراً تَنَازَرَ تَحْتَهُ لَوْلَا الشُّعَارُ
عجاجاً تَعَثَّرَ الْعِقْبَانُ فِيهِ كَأَنَّ الْجَوَّ وَعَثَ أَوْ خَبَارَ

ومما يكلفت النظر إليه ههنا استكمال الصورة المروج

والعجاج والعقبان ، والخيل بطبيعة الحال ، في مقدمة المنظر .

ونعود إلى الأبيات القافية :-

وَلِيْلًا تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ

كَأَنَّ ثَرَاهَا عَنَبَرٌ فِي الْمُرَافِقِ

بلاد" إذا زارَ الحسانَ بغيرها

حصى ترّبها ثَقَّبَنه لِلْمَخَانِقِ

وكما اثني على الثرى ، اثني على الحصى - وما احسب الا ان

الأندلسية رحمها الله ، نظرت الى هذا البيت حيث قالت في وصف الوادي :-

يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعِذَارِي فَتَلْسِسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النَظِيمِ

والبيت جيّد والتوليد في الشعر مذهب متلئب ، يأخذ

الاخير عن الاول وكل اولئك صوب الحجاج كما قال ابو تمام .

سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلْبِيَّ مَلِيحَةً

على كاذبٍ من وَعَدَها ضَوْءٌ صَادِقٌ

الى آخر ما قال ، وانما اوردنا هذه الايات لمكان وصف الحصى والثرى

وحياة العراء والهواء الطلق فيها .

هذا

ولابي الطيب بعد مواضع أطل فيهن ووصف الطبيعة بعرض

الطول ورّبما كان ذلك عن اقتراح من ممدوحيه ، على أنه لم يخرج عن

مذهبه من جعل كل ذلك طرفاً من حيويته هو وحركته الدائبة ، وإحساسه

القوى بتجارب ما شاهد وانطبع في فؤاده ودفعه الى التغنى والبيان .

من ذلك أبياته في البحيرة التي جعلها خاتمة مدحه لعلى بن ابراهيم

التنوخي وفيها قوله :

سُغُورٌ دَفِيٌّ وَمَاؤُهَا شَبِيمٌ

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرِكَ الْبَحِيرَةَ وَالـ

تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَطَمٌ

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفَحُولِ مَزْبَدَاهُ

فَرَسَانٌ بُلُقٌ تَخُونُهَا اللَّجْمُ

وَالظُّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسِبُهَا

كَأَنَّهَا وَالرِّيَّاحَ تَضْرِبُهَا
كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
نَاعِمَةٌ الْجِسْمِ لِاعْظَامِ لَهَا
يُبْقَرُ عَنْهُمْ بَطْنُهَا أَبَدًا
تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا
فَهِيَ كَمَا وَرِيَّةٌ مَطْوُوقَةٌ
يَشِينُهَا جَرِيئُهَا عَلَى بَلَدٍ

الى آخر ما قال

والايات في جملتها جيدة • وفي البيت الاول رضا بالدَّفءِ وحبُّ
له • ووازن بين هذا وقوله :-

وَقَدْ نَدَفَ الصَّنْبُرُ فِي طَرْقِهَا الْعُطْبَا

وقوله :

يَقْمِصْنَ فِي مَثَلِ الْمُدَى مِنْ بَارِدٍ
يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنًا كَالْخَصِيَانِ

وقوله :-

يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ

والبيت الثاني فيه الاحساس بقوة الموج وازياده وقد جاءت
هذه الصورة أكثر وضوحا في قوله :-

وَاحْذَرَهُ إِذَا كَانَ مَزْبَدًا

وفي قوله :-

وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مِتْلَاطِمٌ

وقوله « والظَّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ » أثبت فيه انطباع صورتين : الظير
والامواج وأحسب ان اهتمامه بتشبيهه الموج بالخيل وفرسانها اضاع عليه
اكمال ما بدأ فيه من أمر صورة الظير •

وصورة تشبيهه الموج بالخيل اوضح في بيت التشبيه الذي جاء به في الميسية
ذات الهاء الساكنة في مدح سيف الدولة :-

وَأَحْسَنُ مَنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ كَلِّهِ
حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِهِ
عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تَحْكَمْهَا سَحَابَةٌ
وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تَغْنُ حَمَائِسُهُ

وَفَوْقَ حَوَاشِي كَلِّ ثَوْبٍ مُوَجِّهِ
مِنَ الدَّرِّ سَيْطٌ لَمْ يَثْمُبْهُ نَاطِسُهُ

تَرَى حَيَّوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهِ
يُحَارِبُ ضِدَّهُ ضِدَّهُ وَيُسَالِمُهُ
إِذَا ضَرَبْتَهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّهُ
تَجُولُ مَذَاكِيهِ وَتَدَأَى ضَرَاعِيهِ

الشاهد قوله « تجول مذاكيه » - وغير خاف ان هذه الصورة أشبه
بامواج البحيرة تهب عليها الريح منها بأمواج البحر ذي الشَّبَجِ العُطَامِطِ
وقوله :-

كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَسْرٌ حَفَّ بِهِ مِنْ جَانِبِهَا ظَلَمٌ
فِيهِ مَا قَدَمْنَا مِنْ قُوَّةِ شُعُورِهِ بَضُوءِ التَّمْرِ وَبِهَاءِ اشْعَاعِهِ • ثم أحسبه
نظر فيه الى قول ابى تمام :

تَرِيَا نَهَاراً مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ

زَهْرُ الرِّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مَقْسَرٌ

وأحسب ان مقال اندرو مازفيل Agreeen Shade فيه صبغ من
فلال معنى أبى تاء إذ لا يكون الظل أخضر إلا اذا كان عليه إشعاع من
خضرة الورق .
وعجز قوله :-

نَاعِمَةُ الْجِسْمِ الْأَعْظَامِ لَهَا لَهَا بَنَاتٌ وَمَالِهَا رَحِمٌ
مع ما فيه من تصوير حيوان الماء دون صدره - بل يوشك صدر
صدره ان يكون هو لب البيت « ناعمة الجسم » لما فيه من قوة الاحساس
بين مس ماء البحيرة وهي ساكنة وقوله :-

تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا وَجَادَتِ الْأَرْضُ حَوْلَهَا الدِّيمِ
حي الصورة ، مشرق بالضوء والنسيم ورنات موسيقا الطبيعة .
وقوله :-

فَهِيَ كَمَاوِيَّةٍ مَطْوُوقَةٍ جُرِّدَتْ عَنْهَا غَشَاؤُهَا الْأَدَمِ
كأنه مأخوذ من قول امرئ القيس :-

وَعَيْنٌ كَمِرَاةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُهَا مَحْجَرُهَا مِنَ النَّصِيفِ الْمُتَقَبِّ
وهو جيد في التشبيه ، الا ان الصورة التي مرت في قوله « كأنها في
نيارها قمر » اوضح وأجود .
ثم قوله :-

بَشِينِهَا جَرِيئُهَا عَلَى بَلَدٍ يَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَزَمِ
تنمة لما كان ابتداء به ووصف البحيرة من قوله :-

لولاك لم أترك البَحَيْرَةَ وال غورُ دَفِيءٌ وماؤها شِبم

وهو في جملته قريب من قوله في ما بعد ، عندما رأى شعب بوان :

أَعن هذا يُسَارُ إلى الطعان

ولا يَخْفَى ان التعبير هنا أَنْضَجُ وأجود . على أن المعنى الذي أراده

في الميمية هو عَيْنُ المعنى الذي استطاع إيضاحه وتبَيينه ههنا - وهو

ضرورة مغادرة الخفض والطيبات من أجل الحَرْب ذات الشدائد ، ما

لا يجد المرء منه بُدًّا في كثير من الاحيان .

واحسب ان هذا المعنى عينه هو الذي أجمله وجاءَ به على سبيل الحكمة

في قوله :-

ومرَّادُ النّفوسِ أصغَرُ من أن تتعادي فيه وأن تتفاني

غَيْرَ أنّ الفتى يلاقى المنايا كالحاتٍ ولا يلاقى الهوانا

والادعاء والقزم من معدن الهوان وضريرته بلا ريب .

هذا ومن ذلك ايضا لاميته الارجوزة ، التي وصف بها الصيد مع عضد

الدولة ومطلعها :-

ما أَجْدَر الايام والليالي .

ووزنها من السريع « مستفعلن مفعولن » وان شئت عددته من الرجز

دخلكه القطع - مُسْتَفْعِلٌ وَكَأَنَّ من أَبِي هذا كِرَاهَ أَنْ يُصَارَ

بشيءٍ أصله وتد الى سَبَبٍ كل منهما أصل في نظام العروض وفي هذا

نظر . والأراجيز المشطورة كأنها أدنى الى النثر من القصيد المحكم ، واحسب

هذه الكلمة من أبي الطيب لو قد كانت في أسلوب قصيدهِ المحكم لكان

مكانها من شعره أعلى وأفحل

ومع ذلك فهي فريدة حقا في بابها لما اشتملت عليه من ضروب التأمل
والنظر الدقيق والتجارب السريعات المتلاحقات مع سلاسةٍ وانفاسٍ مَرَحٍ
وفكاهة .

بدأ بمقدمة قصيرة تعنى فيها بشيء من الفخر اولا :-

ما أجدر الايام والليالي بأن تقول ما له ومالي
لا أن يكون هكذا مقالي فتىً بنيان الحروب صالي

وهذا كما ترى فيه معنى ضيق نفسه بما لئزء اليه من صراع .

منها شرابي وبها اغتسالي لا تخطر الفحشاء لي ببال

وأحسب نفى الفحشاء عن نفسه دعاء اليه قوله «وبها اغتسالي» في قافية

الشرط الذي قبله ، فهذا من باب تداعى المعانى كما ترى ، حتى اذا قال :

وكيف لا وانما إدلالي بفارس المجروح والشمال

أخذ في مدح عضد الدولة مختصرا ذلك فذكر شجاعته وانتصاره على

الاعداء .

حتى اتقت بالفرّ والاجفال فهالكٍ وطائع وجالى

ثم أخذ من بعد في التماس اللذات الشريفة لنفسه بالصيّد وهو

نزهة الملوك .

سارَ لصيّد الوحش في الجبال وفي رفاق الارض والرمال

على دماء الانس والاورصال

وهذه صورة فظيعة ، وزعم ابن بطوطة أنه لما كان بالهند ذهب الى وليمة

عند أحد الامراء ، فأصاب حافِرُ فرسه بعض أوصال القتلى عند

الباب فتأمل .

مُنْفَرِدِ الْمُهْرِ عَنِ الرَّعَالِ

ثم أخذ يصف سير الخيل الى الصيد في تدير محكم •
ما يتحركن سوى انسلال فهن يُضْرَبْنَ على التصهال
كله عليل فوقها مختال يُمْسِكُ فاه خَشِيَّةَ السعال
وهذا بلا ريب أخذه من قول رؤية يصف الصائد حيث اختفى ينتظر
ورود الوحش :-

فباتَ والتنفَسُ من الحِرْصِ الفَشَقُ

في الزَّرْبِ لو يَمْضُغُ شَرِيًّا ما بَصَقُ

أي من حرصه الشديد ألا يسمعه الوحش فينفر كان في زربه وهو
مخبؤه لو مَضَغَ حنظلا - والثَّرْبِيُّ هو الحنظل وهو أمره الاشياء -
ما بَصَقَ •

وليت شعري عن رؤية كيف غفل عن صَوْتِ مَضغ الحنظل نفسه
ولعله ان يَعْتَذِرُ معتذر له بأنَّ لَوَّ تفييد عدم الوقوع اذ هي حرف لما كان
سيقع لوقوع غيره •

يُمْسِكُ فاه خَشِيَّةَ السعال من مَطَّلَعِ الشَّمْسِ الى الزوال
ثم أخذ بَعُدَ في صفة صَحْرَاءِ الأَرْضِ وحيوانها وما رَوَّعَهَا به
الاميرُ وصحبه من دَمَوِيَّةٍ واصطياد •

سَقِيًّا لَدَشْتِ الأَرْضِ الطَّوَالِ

بَيْنَ المَرُوجِ الفِجِّ والأَغْيَالِ

هذه هي الصورة الكبيرة العامة - صَحْرَاءِ واسعة ممتدة بعضها مروج
وبعضها غاب •

داني الخنايص من الأشبال
مُسْتَشْرِفِ الدَّشْبِ عَلَى الْغَزَالِ
مُجْتَمِعِ الْأَضْدَادِ وَالْأَشْكَالِ

الخنائيص صغار الخنازير ... والمكان كما ترى أشبه شيء بالغابات
سيحية التي تجعل الآن ملاجئاً لنادر الوحش في أواسط أفريقية مثل
كينيا وجنوب السودان وغير ذلك من البلاد :

كَأَنَّ فَنَاءَ خُسْرٍ ذَا الْأَفْضَالِ
خَافَ عَلَيْهَا عَوَزَ الْكِمَالِ
فَجَاءَهَا بِالْقَيْلِ وَالْقِيَّالِ

اذ لم يكن دشت الارزن نفسه مكان - فيلة - ثم هذه فيلة من
نوع المروض المقاتل ، فهي كالخيل ليست من الوحش ولكن امتداد
بشر .

ثم اخذ أبو الطيب يصف ضروب الوحوش فافتن في ذلك أي
فتن مثل قوله في وصف الايائل وقرونهن الطوال الثقال :

وَلِدْنٌ تَحْتِ أَثْقَلِ الْأَحْمَالِ
إِذَا تَلَفَّتْنَ إِلَى الْأَضْلَالِ
أَرَيْنَهُنَّ أَشْنَعَ الْأَمْثَالِ
كَأَنَّمَنَّ خَلِقْنَ لِلْأَذْلَالِ
زِيَادَةً فِي سُبَّةِ الْجَهَالِ

لان قرونها طوال ثقال بلا جدوى فهي ممّا كانه لم يخلق إلا لان
سب به من يسب فيقال هذا ذو قرون إذا كانت زوجته تخونه .

والعُضْوُ ليس نافعاً في الحال

لسائر الجِسْمِ من الخيال

ثم اخذ في صفة هذه اللّحى المضحكات ، وأنها ليست لها سِبَالٌ ،
جَمَعَ فادر :-

وأَوْفَتِ القُدْرُ من الأَوْعَالِ مَثْرَتَدِيَاتٍ بِقِسِيٍّ الضَّالِّ

يعنى قرونهن شبهها بقسيّ الضال وهو ضَرَبٌ من السَّدْرِ مستقيم
العصون ولعسري إن القدر قرونهن انفسها ما كانت تُجْعَلُ اقواساً فيكنّ

في ما ذكروا شديداً النزع :

لها لِحَى سَوْدٌ بلا سِبَالٍ تَصْلِحُ للاضْحَاكِ لا الإِجْلَالِ

ثم اخذ في صفة هذه اللّحى المضحكات ، وأنها ليست لها سِبَالٌ ،
بدليل قوله في هجائه كافوراً وصحبه :

أغاية الدّين أن تُحَقِّقُوا شواربكم ...

الاييات

وانها تُضَمِّخُ بالابوال والزبل ... وتيئت شعري عن أبي الطيب
كيف كان يقول لو علم أن بعض الناس هكذا يفعلون •

كَلِّ أَثِيثٍ نَبْتُهُا مِتْفَالٍ لَمْ تُغْدَ بِالْمِسْكِ وَلَا التَّعْوَالِ
تَرَضَى مِنَ الأَدَهَانِ بِالْأَبْوَالِ وَمَنْ ذَكِيَّ التَّمِسْكِ بِالذَّمَالِ
لَوْ سُرِّحَتْ فِي عَارِضِي مُحْتَالٍ لَعَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ المَالِ

وغير المال من أعراض هذه الدنيا الزائلة - ولا زالت هذه التجارة بين

البشر ذات رواج •

ثم أخذ يصف المقتلة الرهيبة التي تلت لتلك الوحش اللائي كن قبل
عيس آمنآ •

عد اودعتها عتل الرجال في كلِّ كِبِدٍ كِبِدَى° نِصال

فهنَّ يهوين من القلال •

••••• أي رؤوس الجبال

مَقْلُوبَةٌ الْأَظْلَافِ وَالْإِرْقَالِ

اذ صرن جنائزَ بعد نبْضِ الحياة ••

يُرْقَلْنَ فِي الْجَوْءِ عَلَى الْمَحَالِ

أي على فقار الظهر •••

في طَرْقٍ سَرِيعَةٍ الْإِيصَالِ

لَا يَتَشَكَّيْنَ مِنَ الْكَلَالِ

وَلَا يُحَاذِرْنَ مِنَ الضَّلَالِ

يا للأسف •••••

ثم طفر خياله فذكر جزيرة العرب : حَيْتُ° بُسَيْطَةٌ° النَّيِّ جَابَتْهَا

• كئبه جَوْبَ الرِّدَاءِ •

• جَابَتْ بِسَيْطَةَ جَوْبِ الرِّدَاءِ بَيْنَ النَّعَامِ وَبَيْنَ الْمَهَامَا

فخافَ عَلَى وَحْشِهَا وَوَحْشِ نَظِيرَاتِهَا ذَوَاتِ النَّعَامِ وَالْمَهَامَا وَالضَّبَابِ

وَالْأَوْرَالِ مِنْ بَأْسِ الْأَمِيرِ أَنْ يَصِيبَهَا مِثْلُ مَا أَصَابَ الْفُؤَادَ

• لَا يَأْتِلُ بِدَشْتِ الْأَرْزَاقِ :

• وَوَحْشٌ° نَجْدٍ° مِنْهُ فِي بَلْبَالٍ يَخْفَنُ فِي سَلْسَمِي° وَفِي قِيَالِ

سَلْسَمِي جَبَلِ طَبِيءٍ وَقِيَالِ لَبْنِي عَامِرٍ

• وَفِي الرِّدَاءِ الضَّبَابِ وَالْأَوْرَالِ وَالْخَاصِبَاتِ الرِدْبِدِ وَالرَّمَالِ

والخاصباتُ النعامِ والرئالُ اولادهنَّ جَمْعُ رَأُلٍ
الظبي والخنساءِ والذئبالِ يَسْمَعَنَّ من أَخْبَارِهِ الْأَزْوَالِ
أي العجبية *

ما يَبْعَثُ الخُرْسَ على السُّؤالِ
فَحَوْلُهَا والعُوذُ والمَتَالِي تودُهُ لَو يُتَحَفِّها بِوَالِي
يَرَكِبُهَا بِالخَطْمِ والرَّحَالِ

أي فَتَصِيرُ أليفةً مُدْعِنَةً كالإبلِ والبَقَرِ والضَّأْنِ والمعزى
يُؤْمِنُهَا من هَذِهِ الْأَهْوَالِ

ويَخْمُسُ العُشْبَ ولا تَبَالِي

أي يَأْخُذُ مِنْهَا خُمْسَ العُشْبِ فيجعلُهُ من نصيبِ غيرها ممن تَأَلَّفَتْهُ
ابْنُ آدَمَ من قَبْلِ

وفي الوحشِ من ضبابٍ وأورالٍ وبعضِ الغزلانِ مَرَاكِبٌ للجنِ فلابُدَّ
من قَهْرِ الجنِ -

فَأَكْسَلَ أبو الطيبِ طَفْرَةَ خياله البديعة بقوله :

لَمْ يَبْقَ الا طَرَدُ السَعَالِي

وهن نساء الغيلان ، ضَرَبَ من الجن ، وقالوا مِنْهُنَّ نِسَاءً صَدَقَ ،
وأشار الى هَذَا المعنى أبو العلاء في رسالة الغفران حيث ذكر حَدِيثَ
تَأْبَطِ شِرا وأبياته التي يقول فيها :

أنا الذي نَكَّحَ الغِيلانَ في بَلَدِي

ما طَلَّ فِيهِ سَمَاكِيٌ ولا جادا

بَحِيثٌ لَا يَعْصِيَتُ الْغَادِي عَمَائِتَهُ
وَلَا الظَّالِمُ بِهِ يَبْغِي تَهْبِئًا
وَقَدْ لَهَوْتُ بِصُقُولِ عَوَارِضِهَا
بِكُرِّ تَنَازَعِي كَأَسَاءٍ وَعَنْقَادَا
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَأَعْقِبُهُ
عَصْرُ المَشِيبِ فَقُلُّ فِي صَالِحٍ بَادَا

ولا استبعد أن يكون أبو العلاء قد أخذ فكرة رسالة الغفران كلها من شطحات أبي الطيب في هذه اللامية - كالذي تقدم من طلب الوحش أن يجعل الأمير عليها واليا واذعانها لتتركب ثم ما صار إليه أبو الطيب بعد من صفة مطاردة السعالي على ظهور الإبل في الليالي غير المقصرات •

لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِي
فِي الظُّلْمِ الغَائِبَةِ الهَلَالِ
عَلَى ظُهُورِ الإِبِلِ الأَبْئَالِ

• أي الطويلة الصبر على العطش •

فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الآمَالِ
فَلَمْ تَدْعُ فِيهَا سِوَى المَحَالِ
فِي لَامَكَانٍ عِنْدَ لَامَنَالِ

وفي رسالة الغفران شواهد قوية من معنى انتفاع أبي العلاء بأخيلة هذه الأرجوزة - من ذلك ما جاء في نعته مراكب الجن على لسان أبي هدرش :
حَسْنَا فِي الجُنْحِ خَيْلٌ لَهَا أَجْنَحَةٌ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الأُنَيْسِ
بِأَنْتَقُ تَسْبِقُ ابْصَارَكُمْ مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعَيْسِ

كأنه يعلق بهذا على قول أبي الطيب :

في الظلم الغائبة الهلال على ظهور الإبل الأبال
كأنه كَوْنُ الإبل أْبَالاً وحده لا يكفى ، فينبغي ان تكون غريبة
الهيئة بَيْنَ النعام والإبل ، فهذا اشبه بالجن كما ترى • ولعله أخذ
قوله (بين نعام وعيس) من قول أبي الطيب :

بَيْنَ النعام وبين المها

ومع ان المراد بَيْنَ هنا التوسط ، لا يخفى ان صورة ناقة أبي
الطيب بَيْنَ هذين الصنفين قد تسح الخيال شكلاً أشبه بسا نعته أبو
العلاء وهذا بعدُ باب مما يطول فيه مجال الاستقصاء فنكتفي
منه بهذا القدر ان شاء الله •

هذا واختتم أبو الطيب لاميته بقوله :-

وربّ قبح وحلى ثقّالِ أَحْسَنُ منها الحَسَنُ في المعطال
فَخَرَّ الفتى بالنفس والفعال من قلبه بالعمِّ والاخوال
واحسبه جمع الاخوال لما فيه من معنى الام ، كأن مراده « بالام
وعشيرتها » ، وذلك لانه كان يسكنه ان يقول بالعم أو بالخال ، وليس
بِجَيِّدٍ جَوْدَةً هذا والله اعلم •

وهذه المعاني بعد ، حَسَنُ المعطال والفخر بالنفس والفعال قديسة
عميقة في قلب ابي الطيب وقد مر بك قوله :-

أَغْنَاهُ حَسَنُ الجيد عن لبس الحلى
وعادة العرى عن التفضل

كأنه مَضْمَخٌ بِصَنْدَلٍ

هذا يقوله في غزال من ارجوزته « ومنزل ليس لنا بمنزل » وقوله
وعادة العرى عن التفضل « يستفاد منه أن النساء على زمانه كنَّ ربما تزين
بعض هذا • وقوله من البائية :-

ولا برزّون من الحنّام ماثلةً أوراكن صقيلاتِ العراقيب
صريح في هذا المعنى •

وقوله :-

ابن من بعضه يفوق أبا الباحث والنَّجَلُ بَعْضُ من نجله
وننا يذكّر الجدودَ لهم من نفروه وانفدوا حيكه
وقوله :-

رى الاجداد تغلبها جميعاً على الاولادِ اخلاقُ اللئام
تست بقانعٍ من كلِّ فضلٍ بأن أعزى الى جدِّ همام
وهذه النهاية أعنى نهاية لاميته حيث قال :-

نحر القسي بالنفس والفعال من قبله بالعم والاحوال
من سنخ ما ابتدأ به اولاً حيث قال :

ما أجدر الايام والليالي
بأن تقول ماله ومالي
لا أن يكون هكذا مقالي
فتىً بيرانِ الحروب صالي
منها شرابي وبها اغتسالي
لا تخطر الفحشاء لي بيالي

في هذه الأرجوزة من خفة الروح وعفوية الاداء وسخاءِ الطبع ما كأنه
مباين للمألوف من سخونة ابي الطيب وذكورة شخصيته وصرامتها ، ولذلك
ما زعمنا آنفا انها في بابها فريدة ، على ان جميع هؤلاء الصفات اللاتي هي
بهنّ فريدة مما اخترته عبقرية ابي الطيب في أغوارها دهرًا ، وهو بعد
القائل :-

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْذُ الْمُسْتَعِيرُ أُسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيحَ الْعَطْبِ
رَمَاهُ الْكِنَاشِيُّ وَالْعَامِرِيُّ ، وَتَلَاهُ لِلنَّوْجِهِ فِعْلُ الْعَرَبِ
كَلَا الرَّجْلَيْنِ اتَّكَلَى قَتْلَهُ فَأَيْشُهُمَا غَلَّ حَرًّا السَّلْبِ
وَأَيْشُهُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنْبِ

فهذه من معدن

لو سرّحت في عارضى مُحْتَالٍ لعدّها من شبكات المال
بين قضاة السوءِ والجُهّال

والقائل :-

صَحِبْتُ فِي الْفُلُواتِ الْوَحْشَ مَغْتَرِبًا
حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكْم

ومحل الاستشهاد هنا ان هذا البيت قاله في ميسمته •

واحرّ قلباه ممن قلبه شيم

وكأنما يأنس به إلى الوحش من مجلس سيف الدولة • وقد ذكر ابن
هشام صاحب مغنى اللبيب واو الثمانية فنسب أمر التمسك بقضيتها الى
بعض ضُعفاء النحاة مثل ابن خالويه ، ويبدو لي أنه ما نص على ابن خالويه

ضَعِيفاً فِي النِّحَاةِ إِلَّا لَمَّا كَانَ مِنْ مَكَانِهِ فِي عِدَاوَةِ أَبِي الطَّيِّبِ وَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ
نَجَّهٌ بِمِفْتَاحٍ لَمَّا انْشَدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ ، قَالُوا فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحِجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ
يَعْنَى بِالْحَاسِدِ هَهُنَا جِنَاعَةُ الْحَسَادِ كَلَّتْهُمْ ابْنُ خَالُوِيهِ وَأَبَا فِرَاسٍ
وَهَلُمَّ جَرَا

وَمِنْ هُنَا تَرَى وَجْهَ صَوَابِهِ إِذَا اسْتَقْرَبَ الْوَحْشَ بِالْقُورِ وَالْأَكْمَ دُونَ
هُؤُلَاءِ .

وَمَا أَبْعَدُ فِي هَذَا الَّذِي صَنَعَهُ عَنِ مَذْهَبِ الشَّنْفَرِيِّ حَيْثُ قَالَ :-

أَقِيمُوا بَنِي أُمَّيِّ صُدُورِ مَطِيكِمِ
فَإِنِّي أَلِي قَوْمٍ سَوَاكُمِ لِأَمِيَلِ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدِ عَمَلَسِ
وَأَرْقَطِ زُهْلُولِ وَعَرْفَاءِ جِيَالِ
هَمْ أَهْلُ الْإِهْلِ لَا مَسْتَوْدَعُ السَّرِّ ذَائِعِ
لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلِ

وَقَالَ يَذْكَرُ بِأَسِّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي الْعَرَبِ وَالرُّومِ فِي لَامِيَّتِهِ « أَجَابَ
بِمَعْنَى وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ » :-

فَالْعَرَبُ مِنْهُ مَعَ الْكَدْرِيِّ طَائِرَةٌ

يَعْنَى الْقَطَا وَارْتِبَاظُهُ بِالْعَرَبِ وَارْضَهُمْ مَعْرُوفٌ وَقَدْ تَعَلَّمَ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ
بِحَبِّ اللَّامِيَّةِ :-

كَأَنَّ غَايَا حَجْرَتِيهِ وَحَوْلَهُ
أَضَامِيْمٌ مِنْ سَقَرِ الْقِبَائِلِ رُحَلِ

فهذا

والروم طائفة منه مع الحجل

والحَجَلُ شمالي المنزع وهو من حِسان الطير أكبر من الحمام والقطا

وما الفرارُ الى الأجبال من أَسَدٍ
تَمْشِي النِّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الوَعْلِ

وكلا النعام والوعل فروران وما اراد بالنعام هنا إلا أعداء سيف الدولة
من العرب اذ اعتصموا منه بالجبال كما تصنع الوعول - ولمعرفة ابي الطيب
بالصيد والصحراء يتردد ذكر الاسد والنعام والوعول والمها والغزلان ، لا
على سبيل التقليد والمحاكاة ، في شِعْرِهِ كَثِيرًا - من ذلك ما تقدم ومثل قوله :
فَأَتَيْتَ مَعْتَرِمًا وَلَا أَسَدًا وَمَضَيْتَ مَنَهَزِمًا وَلَا وَعْلًا
وفي الايات اللامية المتقدمة قوله :-

فَكَلَّمَا حَمَلْتَ عِذْرَاءُ عِنْدَهُمْ فَإِنَّا حَمَلْتُ بِالسَّبْيِ وَالْجَمَلِ

جاز الدروب الى ما خلف خرشنة « وهي من أرض الروم » وزال عنها

وذلك الروع لهم يزل •

وكأن استغراب الروم وبنى عمهم الفرنجة للجمل ونسبتهم إياه الى
دار العرب والاسلام قد كان منذ ذلك الزمان وما أَحْسِبُ أَنْ أَحَدًا أَبَانَ عَنِ
هَذَا الْمَعْنَى كَمَا صَنَعَ أَبُو الطَّيِّبِ هَهُنَا - فهذا من باب ثباته على المحك الذي
لا ينكر مما نبه عليه ابن الأثير في المثل السائر •

وذكر أبو الطيب شعب بوان فقال :-

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَعَانِي

والنصَّب هو الوجه والتقدير تزييد طيبا أو تطيب طيبا أو طيبا لها

فِسرْتُ* وقد حَجَبْنِ الشَّمْسَ عني
وجِئْتُ من الضياء بما كفاني

ونسىَ الفتى العربيءَ مفاوزَ بلادِ العربِ وكلَّ قفري :
عليقي مراعِيه و زادِي رُبُدُه

وألقى الشَّرْقُ منها في ثيابي
دَنائيراً تَفِرُّ من البنان

ولا يخفى أن الشاعر هنا انسجم مع رشاقة حركة الغصون ولطف استدارة الشعاع وتحركه على الثياب وهو الكريم وحصانه الكريم كلاهما سائر* ومنتش بهذه الكأس الدهاق من خمّر الحياة :-

لها ثمّر* تشير اليك منه بأشربةٍ وقفن بلا أواني

هذا البيت كما ترى ذرّوة ، من حيث اتصاله بسعنى ما قبله اذ فيه قد اختفى شعور الغربة والبعد كل الاختفاء ، وبلغ الافتتان أوجه ومن حيث انه وصف حيّ دقيق ، وليت شعري عن اندرو ما قيل حيث قال :-

The nectarine and the curious Peach
Into my hands themselves do reach.

هل نظر في قوله the curious Peach الى قول

شاعرنا :-

غريب الوجه واليد واللسان ؟

لها ثمّر* تشير اليك منه بأشربةٍ وقفن بلا أواني

تأمل قوله :- وقفن بلا أواني لاريب نظر أبو الطيب إلى قول ابن الرومي في العنب « كأنه مخازن البلور » ولكن هذا تشبيه بارع ليس الا
•••• لا يذهلنا بالحيوية وصدق التجربة كما يذهلنا قول ابي الطيب •

وأمواء" تَصِلُ بِهَا حِصَاهَا

صَكِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

وهذا البيت فيه الرؤية وسماع الصوت مع استحسان جمالِ الحصى عليه رِقْرَاقِ الماءِ وحكايةُ جميع ذلك صَوْتًا وَمَنْظَرًا مِنْ طَرِيقِ الْجِنَاسِ فِي الصَّادَاتِ وَالتَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ حَلِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَانِي *

والمعنى قديم في نفس ابي الطيب بآية قوله :

شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جِينِهِ

وَرَوْضِ تَرَى لِلسَّاءِ فِيهِ خَرِيرًا

وقوله :

بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحَسَانَ بِغَيْرِهَا حَصَى تَرَبُّهَا ثَقْبَنَهُ لِلسَّخَانِقِ

ولكنه ههنا أحكمه وبلغ به غاية الجودة *

وقد اخفت الاندلسية سَرِقَتَهَا مِنْهُ حَيْثُ قَالَتْ :

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ

سَقَاهُ مَضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ

نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا

حُنُوَّ الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الْقَطِيمِ

وَأَسْبَقَانَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالَا

أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ

يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى

فَتَلْمِسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النِّظِيمِ

والايات في جملة ما أثرت بأبيات الشعب ، صيفة الظل
والخفض والنعمه ثم بيت الحمص ينظر مباشرة الى بيت ابي
الطيب ويخفي هذا النظر بهذه الصورة الحسنه من توههم الحساء
آن عقدها انقصم فتمسه وما هو الا حصاء ذلك المكان

وهذا الذي أخفت به سرقتها من بيت مغاني الشعب إنما اخذته من
بيت « تذكرت ما بين العذيب وبارق » وقد سبق لنا التنبه على ذلك .

وايات الاندلسية - بعد جيدة في بابها ذات تجربة مستقلة
تحمل طابع الأندلس وما كان عليه ظرفاء أهلها من حب الاستماع
بالنزهة في الأودية . . . وفي شعر ابن زيدون شواهد حسنة مما
يصدق ذلك . وههنا ينبه الى أنها لا تذكر من الفاكهة شيئاً ، وإنما
تذكر الدوح والظل ، فهذا مع حلاوة الروح التي في هذه الايات مما
يجعلنا نقطع باستقلال تجربتها .

هذا . . .

وبيت :

صليل الحلى في ايدي الغواني

كأنه انصراف عمّا افتتن به أبو الطيب من دعاء الشار والأشربة
الواقفات بلا اوان له .

وسبح خياله مع هذه الانصرافة الى ذكرى الشام ،

ولو كانت دمشق ثنى عناني

لبيق الشرذ صيشي الجفان

يلنجوجي ما رفعت لضيّف

به النيران ندى الدخان

أي كريم عربي ... وفي هذا البيت روح تَرْتَمُ خفى بمعنى قوله من قبل :

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ثم اتبه مرة اخرى ، وهو بعُد منتبه لم ينفصم عن ذلك الى شعب
بوان :

يحل به على قلب شجاع ويُرْحَلُ منه قلب جبان

الضمير في به « يَعُودُ على الشعب لان سياق الحديث عنه ، يدُك على ذلك قوله « ولو كانت دمشق » أي لو كانت هذه الرياض غُوطَة دمشق لكان وكان وفي لو ههنا معنى من معانى التمنى البعيد ... ليت ان غوطة دمشق كانت هكذا أَمْنًا وَخَفَظًا وَإِذْنًا ما كُنْتُ اغادرها وأُضْطَرُّد لأن اكون غريب الوجه واليد واللسان ودمشق ههنا انما هي رمز للشام كله ، ولما كان فيه من عَهْدِ سيف الدولة وحلب والعراق جميعا

ولكنّ هذه الرياض شعب بوان ، وقد اقدمت عليه وأنا متهيب
وهأنذا أعجب به كل الاعجاب

وقد نعلم أن ابا الطيب في ظاهر الامر أقبل على الشعب بقلب جبان
ورحل عنه بقلب شجاع ولكنّ تعبيره الذي ذكره أصدق وقد نصّ عليه نصّا في ما بعد :

منازل لم يزل منها خيال يُشيعني الى الثوبنكذجان

أي منازل الشام والشعب جميعا ومثل هذا المزج عند ابي الطيب كثير ، وشاهد الحال يدل على أنّه تذكر منازل دمشق وهو

بأرض فارس ، وسياق قوله يشعر بأنه يتحدث عن الشعب وجماله وبقاء ذلك
في نفسه البقاء الطويل .

إذا غنى الحمام الورق فيها أجابته أغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام إذا غنى ونأح الى البيان

ولا ارى « من بالشعب » اراد به أبو الطيب أحدا غير نفسه وشنان ما
بين قوله وهنا وقوله من قبل في البحيرة :

يشبها جرئها على بلد تشينه الادعياء والقزام
على أن ظاهر قوله يستفاد منه أنه غنى عجمة من كانوا بالشعب
وروح الأداء لا يحتمل هذا التأويل . وقوله :

وقد يتقارب الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان
يقوى ما نذهب اليه هنا ، إذ الحمام يغنين طربا ، وهو كذلك
يصنع ، بهذا النشيد الفذ الخالد :

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

وإذ حصان أبي الطيب فيه معنى الكناية عن نفسه فإنه لم يغادر الشعب
إلا كارها كما ترى .

وأنس أبي الطيب الى حصانه ومودته له لا يخفى . وهذا الذي جعل
ابن رشيق ينص على ما نص عليه حيث قال :-

وقد ذكر أبو الطيب الخيل في كثير من شعره وكان يؤثرها على الإبل
لما يقوم في نفسه من التهيّب بذكر الخيل وتعاطي الشجاعة فقال يذكر
قدمه الى مصر على خوف من سيف الدولة :

ويَوْمٍ كليلِ العاشقين كَمَنْتُهُ
وعَيْنِي إلى أُذُنِي أَغْرَى كَأَنَّهُ
له فَضْلَةٌ عن جِسْمِهِ في إهابه
شَقَقْتُ به الظلماء أُذُنِي عِنَانَهُ
وأَصْرَعَ أَيَّ الوَحْشِ قَفْقَيْتَهُ به
وما الخَيْلُ الا كالصديق قَلِيلَةٌ
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها

واستشهاد ابن رشيقي بهذه الايات جيد ، لما فيها من صورة الوصف
مع صدق التجارب وقوة الروح المفصح بها • والبيتان الاولان شديدا حيوية
الانطباع والاخيران ذروة من حكمة القول وبيتا معاني الشعب :

يقول بشعب بوان حصاني اعن هذا يسار بي الطعان
ابوكم آدم سنّ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

فيها معنى هذه الصداقة التي ذكرها ابو الطيب في البائية وفيها الحكمة
ذات العمق الفلسفي التي بحرما جعل يعرف ابو العلاء المعري من بعد ،
وفيها بُعد الروح الفكيه الساخر الذي احسنا من انفاسه القويات في
الارجوزة •

ما أجدر الايام والليالي

وقصيدة شعب بوان من فرائد الشعر - لا أحسب ذلك في شعر ابي
الطيب وحده ولا بالنسبة الى شعر العرب وحدهم
وفي القصيدة بُعد من مزايا الشاعر وإحسانه سوى وصف الطبيعة
ما لا يتسع له نطاق هذه الكلمة ...

ويستوقفني بعد قوله :-

حَمَى أَطْرَافَ فَارَسِ شَمْرَى
يَحْضُرُ عَلَى التَّبَاقِي بِالتَّفَانِي
بَضْرَبِ هَاجِ أَطْرَابِ الثَّمَانِيَا
سِوَى ضَرْبِ المَثَالِثِ وَالمَثَانِي

فهذا كأنه فيه صدىً من اغاني شِعْبِ بوان حنائسه وقيانته وشاعره
الغريب :

كَأَن دَمَ الجَمَاجِمِ فِي العُنَاصِي كَسَا البُلْدَانَ رِيَشَ الحَيَقْطَانِ
مِسْكِينِ الحَيَقْطَانِ لو كان أبو الطيب رآه في الشَّعْبِ مَا
كَانَ خَلَطَ جَمَالَهُ بِصُورَةِ الجَمَاجِمِ وَالعُنَاصِي وَالدَّمَاءِ .. وَلَقَدْ تَذَكَّرَ خَلَطَهُ
مُظَاعَةَ مَنَظَرِ القَتْلِ وَالدَّمَاءِ بِالرِّيْحَانِ وَالشَّقَائِقِ حَيْثُ قَالَ :-

وَلَا تَرِدُ العُتْدَرَانِ إِلَّا وَمَاؤُهَا مِنْ الدَّمِ كَالرِّيْحَانِ تَحْتِ الشَّقَائِقِ
وَقَرِيبَ مِنْهُ قَوْلُهُ فِي « النَّارِنِجِ وَالاغْصَانِ » *
وَههنا رِيَشُ الحَيَقْطَانِ

هل كان أبو الطيب عامدا في جميع هذا الى مُعَارَضَةِ مَذَاهِبِ ضَعْفَاءِ
شِعْرَاءِ زَمَانِهِ مِنْ وَصْفِهِمُ النُّوَاوِيرَ البَلَدِيَّةِ عَلَى حَكْدٍ تَعْيِيرِ ابْنِ رَشِيْقٍ وَمَا
بَسَجَرَاهَا مِنَ الطِّيُورِ وَالحَيَوَانِ

..... الرَّاكِبُ النُّخَيْلَ كَثُّهُ وَإِنْ كَانَ بِالنِّيْرَانِ غَيْرَ مَوْسِمِ
أَمْ يَا هَلْ تَرَى عَطْفَ أَبُو الطَّيْبِ عَلَى الحَيَقْطَانِ - وَهُوَ طَائِرٌ مَلِيحٌ دَاجِنٌ
مِمَّا يَتَأَلَّفُهُ النَّاسُ وَيَذْبَحُونَهُ وَيَنْتَفُونَ رِيْشَهُ ذَا الالْوَانِ الزَّاهِيَةِ كَمَا يَصْنَعُونَ
بَرِيْشَ الدَّجَاجِ

يقول بشعب بوان حصاي أعن هذا يُسار الطعان
أبوكم آدمُ سَنُ المعاصي وعلسكم مفارقة الجنان
رحم الله أبا الطيب فقد كان مُبَدِّعاً مبرزاً في جَمِيع ما راض عليه
بيانه من ضروب القول فأجادَ وحسبنا بَعْدُ هذا القدر من
حديثه وحديث الطبيعة •

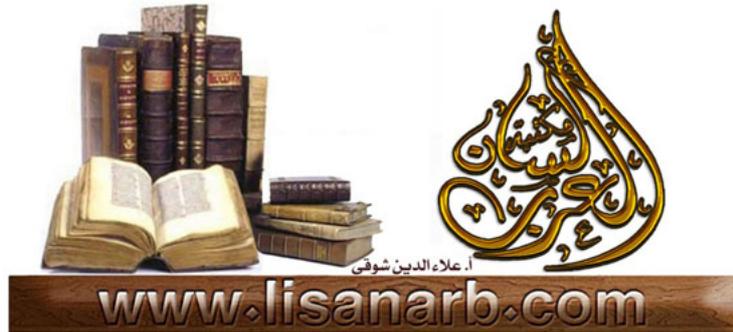
• والله الحمد اولاً وأخيراً •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً

• كثيراً •

عبدالله الطيب،

١٩٧٧-٣-٢٤





تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : رضا الخطاط
التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٣٩ لسنة ١٩٧٧

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

دار الحرية للطباعة - بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغداد
١٩٧٧



السعر ١٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان

U

505

13.1
UT